أقنعة

اســـــم العمـــــل	أقنعة
النـــــــــــــوع	قصص
تـــــــــــأليف	سوزي ثروت
تصـــميم الغـــلاف	عبدالحكيم صالح
إخـــراج داخلـــي	عبدالقادر فايز الهندي
الطباعـــــــــة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــــر	الدار للنشر والتوزيع
المـــــدير العـــــام	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــــون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي	eddar_press@yahoo.com
فـــــيس بـــــوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــــم الإيـــــداع	٢٠١٥/١٠٢٢٣
التـــرقيم الـــدولي	I.S.B.N.:- 978-977-702-077-0

تكملة لأهداف الدار للنشر والتوزيع ورؤيتها لتكون في المقدمة لإثراء المجتمع المصري وإنارة الطريق وتقديم رسالة وتقديم المبشر والمتميز من الشباب الجديد الذي هو أمل لهذا الشعب.

تم التوصل إلى بروتوكول تعاون بين دار (الدار) للنشر وجماعة (إضافة) الثقافية في إطار جهودهما المتصلة في سبيل دعم الموهوبين من الشباب المصري أعضاء جماعة (إضافة) في مجال الأدب للوصول إلى جيل من الكتاب المبدعين المتحققين يساهمون في إثراء الوسط الثقافي المصري.

٢٠١٥

أقنعة

سوزي ثروت

٢٠١٥

إهـــداء

إلى الصغيرة داليا

يفصلني يا صغيرتي عنك بحرٌ وصحراءٌ وأكثرُ من ثلاثين عاماً ،

لكنك لن تختلفي عني كثيرا . . .

لذا وجب أن أنطقَ اليومَ، كي لا تلوميني غدا . .

خیانت

جلست أمام المرآة محاولةً إكمال مكياجي، اليوم مرهق جدًا، عادةً لا أحب تلك الأيام، صديق والدي الذي زارنا مرارًا وتكرارًا صار فجأةً على قدر عال من الأهمية. تأنق أبي وأمي أكثر من عادتهم، ارتدى أبي حلةً كلاسيكيةً بنية اللون، وارتدت أمي فستانًا أزرق مع شيء من الإكسسوار المناسب.

بالأمس وقفت مع أمي لتنظيف المنزل، نظفت حجرة الاستقبال ورتبتها غسلت زجاج النوافذ ونفضّت الأتربة عن الفرش والستائر، غسلت الشراشف ونظفتُ الأرضية، تمنتْ أمي لو أنّنا نستطيع غسيل الحوائط إلا أنني لم أطق الحديث، وتركتها. نظفت هي المدخل وحجرة الطعام، لمعتْ التحف قطعةً قطعة، وصفتها في أماكنها، أحضرتْ ورودًا للمزهرية، أخرجتْ طقم الصيني الذي لا تخرجه في الأحوال العادية. دخلتُ إلى مطبخ منزلنا كي أرفع التراب عن الطقم وأغسله وأجففه، تسلل إلى أذني صوت صياح وضحك جيراننا، لمحت جارنا يعانق زوجته ويتضاحكان ثم أغلقا النور واختفيا، عدت مرةً أخرى إلى غسيل الفناجين والأطباق، أحضر أبي الحلوى ووضعها بالثلاجة، تأكد من وجود قهوة وشاي وعصائر بالمنزل. بالأمس دفعتني أمي للذهاب إلى مصفف الشعر، بينما كنتُ أقيس ثيابي، ألمح أبي إلى أنه لا يرغب أن أرتدي ألوانًا فاتحةً، لأنها تكشف عن عيوب قوامي. كانت دهشتي

حينها تساوي دهشتي حين قالت لي صديقتي أن والدها طلب منها أن تواظب على الذهاب إلى مصفف الشعر لفرد شعرها المجعد، قالتها ضاحكةً وهالني وقتها ألا تشعر بأي شيء حيال ذلك.

تجاهلتُ طلب والدي، ارتديت ما أردت، أشعر أنني أنثى وصغيرة السن حين أرتدي ألوانًا فاتحةً، بخاصة الأبيض الذي ينير الداخل والخارج، والوردي الذي يلون الحياة بلونه، أحمل حينها جمال وخصب الأنثى الأولى.

أتدري، كم أتمنى أن تراني الأنثى الأولى، طالما حلمت أن أرتدي الوانًا فاتحةً وتنانير، أطلق شعري أمامك، أن تهتم وتنفعل لمرآي بصورة بدائية، لكن طبيعة دراستنا العملية تمنعني من ذلك، ليس لدي سوى إرتداء الجينزوالبلوزات المتهدلة وربط شعري إلى الخلف.

لازلت أذكر أول مرة تقابلنا في مدرج الجامعة كأنّها بالأمس، عرفتني زميلة أخرى عليك، كنتَ شديد العجلة وتحمل كثيرًا من الكتب واللوحات، تجري محاولاً اللحاق بالمحاضرة، لم تلفت نظري في البداية، ولكنها التفاصيل اليومية البسيطة التي تقرب مابيننا وتلك الأمور التي ظننت أننا نتشاركها، المشي في وقت الغروب، بائع حمص الشام المقابل لباب الجامعة، الدكتور

الأنيق الذي يجمعنا بعد إنتهاء اليوم الدراسي ليعرفنا أشياء لا نعرفها عن الدنيا ونظل جميعًا مشدوهين فاغري الأفواه نستمع له وكأنّ على رؤسنا الطير، تلك الأبحاث الجامعية التي كانت تضطرنا إلى العمل سويًا، والوقوف في عرض الشارع لعد السيارات والمارة، الأمور التي فسرتها خطأ أنها إهتمام خاص، حين كنت تؤثرني بالتوصيل للمنزل، العمل في الأبحاث، التنقل للحصول على معلومات أثناء الدراسة، السؤال عليَّ حين غيابي، لمعان عينيك حين تراني والضيق الظاهر عليك حين أبادل الآخرين المزاح، أتدري، إنّي كدتُ أذوب خجلاً حين أثنيت على الكعكة التي صنعتها خصيصا كي أذيقك إياها، انتشيت يومين لمجاملتك الرقيقة وتمنيت لو أنّني استطعت تسجيلها كي أتمكن من سماعها مراراً.

كنت أبحث على مواقع التواصل الإجتماعي عمَّا يشغلك، أحاول أن أفهم فيم تفكر، أقرأ عنه حتى يتصل الحديث بيننا دون انقطاع، فلحظات حديثي معك قصيرة جدًا وأنْ طالت.

هل تعرف من اختار لك هدية عيد ميلادك، إنها أنا، أنا التى تلحظ ما ينقصك، ما تحتاج دون أن تطلب، أنا التي تصاب بالاحباط إذا لم ترد على مكالماتها، أنا التي تحسبك الكون إذا

ماجلستَ إليها، أنا من تعتبر مكالمتك صكوك حياة، أنا صاحبة القلب المكسور والكرامة المجروحة من خذلانك وابتعادك.

تلك المرآة التي أجلس إليها الآن تعرف تماما كم جلست أمامها محاولةً التجمل كما الآن كي أبدو أجمل بعينيك، أحاول اكتشاف أي إبتسامة هي الأليق بوجهي وكيف يكون شكل عيناي حين أتذكرك ولكنك لا تعرف.

أرفع شعري عن جانبي وجهي كي أتمكن من فرد الأساس، أكتشف سوادًا عميقًا تحت العينين أخفيه بمساحيق التصحيح التي لا تصحح إلا ظاهرًا، أسد بمساحيق الأساس مسام وجهي كما أسد مسام روحي وأجبرها على الإبتعاد ولا أقدر، فهي تتنفس بجوارك، أختار كحل العينين وظلال الجفون من مواد مقاومة للماء، فلا أرغب في إفتضاح أمري إذا ما تسللت قطرات عاجزة من عيني، أضع لمسات نهائية من ملمع الشفاة ومسحوق الخدين، وأتمنى لو أن هناك مسحوقًا خاصًا يثبت ابتسامتي المختارة. جرس الباب يدق، أنهيتُ مكياجي واستعملت عطرًا لازمًا من رائحة الورد التي أحبها، دخل الضيوف واستقبلهم أبي، دخلت أمي مسرعةً داعيةً إياي إلى الخروج، أعرف تماما مايجب على فعله في تلك المواقف، ألقيت نظرةً أخيرةً على نفسي في المرآة فلم

أجد سوى الإرهاق، أتمنى أن ينتهي اليوم كي أزيل مساحيقي وأنام، دخلت إلى المطبخ ثانيةً، ألقيت نظرةً خاطفة على نافذة الجيران، لا يزال نور المطبخ مطفئًا ونافذتهم مغلقة، ولا صوت يتسلل من شقتهم، صففت فناجين الشاي على الصينية، صببته وخرجت حاملةً الصينية للتعرف على ابن صديق والدي الباحث عن عروس.

دوبان

نستيقظ جميعاًعلى صوت هديل الحمام المنبعث من مساقط النور. تستيقظ أمي على ما يسمونه مملكتها، أسمع من فراشي طرقعة الأواني، مياه الغسيل، وإشعال الموقد، يخبروننني أن الوقت قد حان، تنادي على أمي لتوقظني، لا أستجيب. ما الذي يدعوني للاستيقاظ مبكرًا في نهار صيفي قائظ كهذا؟ تعاود الكرة مرةً أخرى، أستيقظ متأففةً، تبدو أمي مشرقةً على غير العادة. أعلن ضيقي وتبرمي من استيقاظي مبكرًا، تخبرني أن أبي آت اليوم من بلاد المال لقضاء أسبوعين بصحبتنا، أتحمس للفكرة، آخر مرة أحضر لي كثيرًا من الملابس وقطارًا يدورعلى قضبان. يدور ويعود إلى مكانه. أناديه كل مرة يعود فيها أن يعيد أبي معه وألا يأتي لأخذه. طلبت أمي أن أرتدي ملابسي كي نذهب للتسوق، هذا ما أخشاه، الحمل كبير والجسد ضئيل. تدفعني أمي دفعًا للنزول معها فقد كبرت، ولابدّ أن أتعلم هذه الاشياء، كي أساعدها، البنت الشاطرة لابد أن تساعد أمها في شغل المطبخ، وإلا كيف تتزوج؟ وكيف أن أمها أدخلتها المطبخ حين صار عمرها سبع سنوات وأنا صار عمري عشر سنوات إذن كبرت، حماتي حين تأتي لاختباري لابد أن تجدني شاطرة، وإلا ماذا تقول عنها – أي أمي.

من قال لها أني أريد أن أتزوج؟ على الأقل ليس الآن، لمن أترك فساتيني الملونة، قطاري الدوار، ولعب الحجلة مع البنات ؟

أرتدي ملابسي متافقةً وأخرج معها، تمرق في السوق بسرعة ورشاقة لم أعهدها من قبل، تبتاع أصنافًا عدة من الخضراوات والفاكهة التي تتخيرها واحدةً واحدةً، وتفاصل فصالاً مملاً مع الباعة الذين أشفق عليهم من طول الجدل مع السيدات، لو أنني احدهم لدققت عنق تلك المرأة الثرثارة التي بعد أن عبأت ما تريد في الأكياس أفرغتها لأنها لم ترض بالثمن. تذهب أمي لبائع الدجاج وتتخير أربع دجاجات، يزنهم البائع ثم يشرع في ذبحهم، وتنظيفهم من الريش، كل مرة أشاهد التنظيف أتعجب من تلك الماكينة الدوارة التي تشبه قطاري الدوار. يضع بها الدجاج فيخليه من ريشه ثم يفتح بطن الدجاجة ويخرج أحشائها، يخرج عنقودًا يشبه عنقود العنب ولكنه أصفر، يهز رأسه أسفًا هو وأمي. أسألها ما هذا العنقود، تخبرني أنه عنقود البيض، وأنّه لا يجب ذبح تلك الدجاجات البياضة، أشفق على الدجاجة الام وأتسائل عن ذنب فراخها.

نعود إلى المنزل، تشرع أمي في غلي الماء حتى قبل أن تغير ملابسها، تضحك أواني الطهي محدثةً إياي أننا لن نشتكي من ملوحة الطعام هذه المرة، وتروي لي في خبث عن دموع أمي التي تغسل الآنية وتختلط بالمرق والأرز، أتذكر بالفعل أننا شكونا من ملوحة الطعام قبيل سفر أبي بعدة أيامٍ، وصرنا بعدها نشكو منه مراراً، لكن أمي تقسم لنا أنه نفس معيارالملح المضاف إلى الطعام دوماً.

تبدل أمي ملابسها وتحضر وعاءًا صغيرًا به قليل من السكر والماء، تقلبه حتى يذوب الجميع وتتبعه بليمون ثم تتركه على الموقد حتى يحترق ويصبح المزيج لزجًا.

تتضاحك الآنية الخبيثة في ما بينها إلا أن جدران المطبخ تزجرها، وتحن على ظهر أمي التي أسندته إليها عندما جلست على الأرض بعد أن أغلقت النوافذ، تعطيني أمي ملعقةً من المزيج لألعقها، أما هي فتفرد السكر على جسدها ثم تجمعه، وفي كل مرة أشعر أنها تتوجع ولا أفهم لم تفعله.

تذهب لتغتسل ثم تخرج من الحمام مطلقةً شعرها المعقود، ومرتديةً ثيابًا مزركشةً.

كان هذا نفس مظهرها حين قال لها أبي أنه لابد أن يسافر إلى بلاد المال، سألته أمي: لم؟ أجابها: لأجل المستقبل. طلبت إليه أن يأخذنا معه، رفض حيث لا مكان للأسر هناك.منذ ذلك الحين ذبلت أمي وتساقطت الورود من ثيابها، وصار طعامنا مالحًا.

نتهلل جميعًا حين نسمع صوت المفاتيح في الباب، إنه أبي. يحتضنني أولا ويحملني على ذراعه قليلاً ثم ينزلني، ويحتضن أمي، تتعلق عيناها بعينيه اللتين تجولان في المنزل بحثًا عن أي تغيير حدث أثناء غيابه، ولكنه في النهاية لا يرى سوى بضع سنتيمترات قد أضيفتْ إلى طولي.

في تلك الأثناء يزوغ نظري على الحقائب، يكاد يقتلني الفضول لمعرفه ماذا أحضر أبي، أعبث بها، فيفلت أمي من بين ذراعيه، ويفتحها مخرجًا منها ملابسًا وعددًا من الدمى، أحضر القطار الدائري وأضع عليه الدمى، لكن عربات القطار الضعيفة لم تحتمل ثقل الدمى، تنقلب عن القضبان، إلا أن عجلاتها تظل تدور.

تدخل أمي إلى المطبخ، أصحبها إليه، تخرج دجاجةً وتغسلها بالملح، تنظف الخضراوات، والفاكهة واحدةً واحدة بمنتهى

الرفق، تأخذ طبقًا وتضع فيه بضع حبات من الفاكهة بعد أن تلثمها. يضحك الحوض ويغمز لطبق الفاكهة قائلاً "إرفق بما تحمل". تطلب إلى أن أخرجها إلى أبي، ينظر أبي إلى حبات الفاكهة المطبوع عليها أحمرالشفاه ويبتسم، يعطيني واحدةً ويأخذ واحدةً ويطلب مني أن أوصل ثالثةً إلى أمي.

أدخل إلى أمي ثانية، أجدها تحادث الأطباق والملاعق والأكواب وجدران المطبخ، تتسمع إلى صوت هديل الحمام القادم من مساقط النور وتبتسم، تقطع البصل وتدق الثوم ولا يتوجع المدق، يجرح إصبعها ولا تهتم، تضعه تحت الماء فيتوقف النزف لتكمل عملها.

تنهي طعام الغداء، تغرف الطعام في الأطباق وتعطيني إياه لأوصله الى السفرة، يراني أبي فيتبعني إلى المطبخ، يحمل هو الآخر الأطباق ليوصلها.

نجلس سويًا لتناول الطعام، يطلب أبي من أمي بعد الانتهاء أن تجلس معه قليلاً، تخبره أن عليها أن تغسل الأطباق أولاً، يتركها ويهدل الحمام.

يدق جرس الباب، يدخل مجموعة من الأقارب، تعد أمي أكواب الشاي لهم وتقدمها، تجلس معهم قليلا، ويهدل الحمام.

تعود إلى المطبخ لإنهاء الوجبة التالية، أصوات الهاتف بالخارج لا تنتهي، ترد أمي وتصحب الهاتف معها إلى المطبخ، ثم تعطيه لأبي ليطول الحديث.

أتأفف من الضيوف الكثر، ومن الهاتف أطلب منها أن ألعب قليلاً، تنبهني إلى أن ألعب مع الفتيات لا مع الصبية، أنزل إلى الشارع، تحجل الفتيات ويلعبن بالنحلة التي تدور في مكانها أو يدرن حول أنفسهن، بينما يركض الصبية خلف إطارات السيارات القديمة والكرات، للدوران ولا شك علاقة بالرحيل، لذلك يرحل الرجال وتستمر النساء في الدوران حول أنفسهن.

يدق جرس الباب ثانية، رجلٌ وامرأة طاعنان في السن، يحمل إليهما أبي شيئًا من الحقيبة كان أوصاه أحد زملائه أن يحمله إليهما، تحمل أمي الشاي لهما، يجلسا قليلاً مع أبي ثم يرحلان، ويهدل الحمام.

يمل أبي من طوفان الضيوف غير المنقطع، يقول أنه خارج لقضاء بعض الأمور أثناء إعداد أمي للوجبة التالية، التي ألحظ زيادة ملوحتها.

يتشاغل أبي على المقهى ومع الضيوف وفي قضاء الحوائج وإنهاء الأوراق ورد الأمانات، حين كانت أمي تعد الوجبة التالية.

يعد أبي حقيبته مبلغًا أمي أنه لابد أن يرحل، تسأله هل من أمر أغضبه، يعلمها أن الاجازة قد انتهت، تصرخ أمي

" لكن يوما واحدا فقط قد مضى".

يقول: "مر خمسة عشر يومًا.. لابد لي أن أرحل".

تسأل :"ألا يمكن أن تترك العمل وتستقر معنا".

ينظر إليَّ قائلاً: " الحمل ثقيل ".

يقبلني ويقبلها ويغلق الباب.

تدخل أمي إلى المطبخ، أسمع أصوات انهيار الأواني على الأرض، أدخل مسرعةً. تصرخ الأواني : " لا ذنب لنا.. هي من ألقتنا على الأرض "

أسأل أمي عما حدث تجيب : " لا تقلقي.. إنهارت الأواني أثناء محاولة ترتيبها."

أحـــلام

وقفت إلى جوار زوجته في المستشفى، لا أدري ماذا أقول، ولا كيف أعرفها من أنا، أرغب في احتضانها ووضع رأسها على كتفي. دارت رأسي، هل ستعرفني؟ ماذا عن المبادئ التي صدعني بها؟ هل هو ملتزم بها ؟ أم هي للدعاية فقط ؟ ماذا أفعل عند اتصال والدي هل أرد عليه أم اتجنب الرد؟ ماذا أقول له؟.

كنت متعجلةً جدًا اليوم بعد أن دق هاتفي، لأجد مكالمةً من أحد الأصدقاء الذين تعرفت إليهم مؤخرًا عن طريق "خالد"، انسليت من وسط الجالسين، دخلت غرفتي وأغلقت الباب، أبلغني الصديق بوجود "خالد" في المستشفى.

ارتديت ملابسي مسرعةً، وبعد تحقيق موسع من أهلي حول أسباب خروجي التي اختلقتها استطعت أن أخرج. ركضت في الشارع مسرعةً للوصول إلى المستشفى.

فبعد أن احتدم الصراع على الكرسيّ، شعرتُ بوحشة شديدة جراء انفرادي بأفكار تخالف المحيط، نُظر إليّ ككيان شاذ، سخرالجميع مما أقول، إضافةً إلى اشعاري أنني أقل من أن أتحمل مسئولية نفسي وما أفعل. إنطويت على نفسي، كانت مساحات الحرية الوحيدة المتاحة هي عقلي وبعض وريقات وأقلام، تمنيت مشاركة تلك المساحة مع الآخرين.

هو.. صديق لأخي الأكبر، نُحت من كتلة مستطيلة، ملامح الوجه تحمل بعض البراءة يكسرها بروز عظام الفك فيظهر الوجه مستطيلاً هو الآخر. توطدت صلتي به عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي، أعجبني نشاطه وتمنيت لو استطعت المشاركة، كلمته وطلبت منه أن يصحبني في المظاهرات والمسيرات التي يذهب إليها، رحب بشدة واتفقت على مقابلته في اليوم التالي.

المشكلة أن أبي وأمي لن يوافقا على خروجي في مظاهرة تطالب بسخف – من وجهة نظرهم – بالذات لو أن من سيصحبني رجل غريب نسبيًا. لم يكن أمامي سوى الاحتيال، كانت الكذبة المفضلة لدي هي ذهابي إلى صديقتي التي أبلغتها أنني سأستغل إسمها في الكذب.

أغلقتُ باب المنزل خلفي وخرجتُ، ملأ الهواء رئتي فتنفست، انتظرني عند أول الشارع لأستقل معه سيارته، انخرطنا في تظاهرة، لأول مرة أشترك في حراك شعبي حيث أجد أشخاصًا لا يتهمونني بقصر النظر والغباء إذا ما فتحت فمي. شعرت أنني غير منعزلة عن المحيط وخرجت من عالمي المختلق إلى عالم حقيقي يقبلني دون أن أضطر لغلق فمي.

انتهت المظاهرة، عرّفني على اثنين من أصدقاءه ودعاني للجلوس في أحد المقاهي، فوجئت أنني جالسة وسط ثلاثة من الرجال في مقهى بوسط البلد تعبقه رائحة الشيشة، أخرج سيجارةً ليحتسيها، فرد ورقةً رقيقةً على المنضدة وضع الفلتر ثم قليل من التبغ ولف الورقة وسط ذهولي من وجود مايسمى بالسجائر اللف، لم يلفها لفًا دقيقا، فكانت منتفخةً من ناحية ودقيقةً من ناحية اخرى، إلا أنه لم يعبأ بهذا.

تحدثنا في كل المواضيع التي يمكن أن نتحدث فيها، إتفقنا وإختلفنا دون خوف، نظرتُ حولي ليس هناك من يهتم بأمري أو يظن أنني سيئة الخلق لجلوسي وسط ثلاث رجال في مقهى، كل مشغول بأمر نفسه فقط. أراني أماكن ثقوب الرصاص في جدار المقهى جراء عنف الشرطة. قلت أنّ الوقت تأخر وقد يتصل بي أبي وأنا لا أرغب أن يعرف أنني ذهبت إلى مظاهرة، ظهر عليه قليل من الامتعاض ولكنّه احترم رغبتي وصحبني إلى المنزل.

تكررت اللقاءات، تارةً نذهب إلى مظاهرة وتارةً أخرى إلى مسيرة، أحيانا كنا نبتاع طعامًا وبطاطين للاعتصامات. عرفني طريق مراكز حقوق الإنسان وصحبني إلى هناك، طيب خاطري

كثيراً حين بكيت أمامه إثر مناقشات عدة مع اللذين تهمهم مساحة القماش التي تغطي جسدي أكثر مما تهمهم سجادة الدم التي غطت شوارعنا، تشاجر مع شخص تجرأ وحاول التحرش بي. صددنا معًا في المواجهات ضد المشككين والمستهزئين في الواقع أو على صفحات التواصل الاجتماعي. صرت أعيش حياةً حقيقيةً خارج المنزل وحياة مصطنعة بداخله أحلم فيها بحياتي الحقيقية. أضحك، ألعب، أفرح، أحزن في سرية ودونما أسباب منطقية أمام من حولي، حتى أن أمي بعد أن بحثت عن ابنتها الخشبية ولم تجدها ظنّت أنني في حالة حب، صار لدي رغبةً في فعل أشياء غريبة، كركوب المترو دون تذكرة أو شرب سيجارة أو أكل قطعة من الصابون.

شيء واحد مثَّل نقطة الخلاف ما بيننا، أني لم أصارح أهلي بحقيقة ما أفعل، وأنني ظللت أعتمد على الكذب في علاقتي معهم.

يوم أن أنّبني كنا في ذات المقهى، أخرج سيجارةً ليلفها، سحبتها منه وقمت بلفها بدلاً منه، أثنى على شكل السيجارة المنتظم على عكس اللفافات المنبعجة التي يلفها، هممت بوضعها في فمي، سحبها مني سائلاً:

– أنتِ بتشربي سجاير

– لأ

– أمال بتعملي كدة ليه؟

– حتى أنت فاكر إنك عارف مصلحتي أكتر مني ؟

– مش ده اللي هايخليكي حرة، لازم تواجهي – ثم استطرد– العبيد بس هما اللي بيتداروا علشان ياخدوا حقوقهم البسيطة ويبينوا إنهم مطيعين وملتزمين وهما مش كدة، أن ما كنتيش قادرة تاخدي حقك من أقرب الناس ليكي وتتحملي شوية لوم وعتاب منهم، بتدوري على حق باقي الناس إزاي ؟

غيرت دفة الحديث قائلةً:

– بابا قالي إنه كان بينزل مظاهرات زمان وكانوا بيرجعوا يشيلوا قنابل الغاز ويرموها على العساكر تاني.

– كويس، يعني هايفهم لما تقوليله.

– هي نجلاء مراتك فين، مش بتنزل ليه؟

– لما تشوفها إبقي إسأليها.

لم أجد بديلاً في تلك اللحظة عن الصمت، عدت إلى المنزل في داخلي نزاع، آلمتني كلماته كثيراً، نعتني بالعبودية، لم؟ ماذا عنه؟ أين زوجته؟ لم لا يحضرها أبدًا؟ هل أخبرها عن صداقته بي؟ أم أنه كذب عليها؟ أحيانا نضطر إلى الكذب كي لا نحزن القريبين منّا، نكذب في أمور صغيرة، كذبة صغيرة تجنبنا الكثير من اللوم، أكذب كي لا أتعرض لحرماني من الخروج من المنزل، أنا لا أفعل شرًا.

هو أيضًا يكذب على زوجته، متجنبًا مشاحناتها معه جراء معرفته بي، أخت صديقه المسافر الصغرى غير المتزوجة

ما الذي يمكن أن يربطه بي؟

هو ليس بأفضل مني.

حاولت أن أتجنبه في الفترة التالية، غير أني كنت أتتبع تحركاته عبر موقع للتواصل الاجتماعي، كدت أجن يوم اشتباكات الشرطة والمتظاهرين الاخيرة، تتبعت عبر التليفزيون وموقع التواصل الاجتماعي تفاصيلاً مرعبةً، أعداد غير واضحة من الإصابات والوفيات، اطمئنيتُ على سلامته من تقارب مايرسل على الموقع، كان شديد الغضب يومها مما يراه من عنف الشرطة وكمّ الدماء التي سالت، رفض كلّ توسلات المقربين بالعودة إلى

المنـزل، وأطلـق السـباب واللعنـات ناعتًـا إيـاهم بالسـلبية والتخـاذل وهدد بحذفهم من حسابه الشخصيّ.

فضلت الصمت يومها كـي أتمكن من متابعته، لم يكن هنـاك مـا أفعل سوى الانتظـار الثقيل ومتابعـة أخبـار الاشـتباكات وأسماء المصابين.

بعـد فتـرة جـاء الخبـر مـن أحـد الأصـدقاء، خالـد فـي المستشفى، اكتشفت أن الإنسان ما أن يحب أحدًا فهو يحب كل ما يتعلق بـه، كلماتـه وتفاصيله ومن يحبهم، اكتشفت أننـي أحب زوجته التي لم أرها مرةً من قبل، خفت أن أسبب لـه متاعبًا إذا ما حاولت رؤيته، فقررت أن أتسلل خفيةً إلى غرفته.

أنجدني الصديق الذي إتصل بي، صحبني للتعرف على زوجة خالد، تحرجت قليلاً في البداية :

– نجلاء، مرات خالد

أجابت :

– إستنى، إنت أحلام، أخت هاني.

– إنت تعرفيني ؟

– خالد حكالي عليكي كتير.

– حكالك فعلاً ؟

– هو مش بيخبي عليا حاجة، تعالي علشان تشوفيه.

كان في حال لم أحب أن أره عليها أبدًا، رن هاتفي، أبي شعر بتأخري عن المنزل، رددت عليه :

– أيوة يا أحلام، انت فين دلوقتي؟ إرجعي بقى الوقت إتأخر.

– أنا في المستشفى مع خالد ومراته.

– خالد مين ؟؟

– خالد صاحب هاني، أصله اتصاب في الاشتباكات.

– وإنت إيه اللي يحشرك في الكلام ده، ارجعي بقى مالكيش دعوة.

– أنا كنت بنزل معاه مظاهرات، ومش هاقدر أسيبه، سلام

و أغلقت الهاتف تماما.

انفصال

لا تبارح الخيال صورة شابة ترقص وتضحك في الشارع وهي مرتديةً تنورةً واسعةً، ومن حولها يغنون، كل شيء ملون بألوان النهار والبهجة، أفيق على آلام بالعظام، هل أنا من ترقص؟ عظامي ترفض أن تطاوعني حتى على الخيال، أرتدي ملابسي وأخرج لأجد كل شيء كما هو، نفس الوجوه الكئيبة والحياة الروتينية.

في ذلك الوقت من الصيف حيث الحرارة سلبت ما تبقى لي من قوى، سافرت مع أهلي، علني أجد شيئًا من البهجة على شاطئ البحر.

المصيف منظم من قبل عمل أبي، لم أرغب في الحديث، تمنيت أن أبتعد عن إحساس الفتاة المدجنة الشبيهة بطير بط صغير يتبع أمه دائمًا.

جلست في الباص على كرسي منفصل بالأمام في حين جلستْ باقي الأسرة بالخلف، وضعت السماعات بأذني كي لا أسمع أحدًا، أغلقت عيني قليلاً للبعد عما حولي، كانت صورة الشابة التي ترقص لا تفارقني، استأذنتني للجلوس بجواري امرأة ثلاثينية معتدلة القوام، ثيابها بسيطة ورخيصة، لونت وجهها

وشعرها بأصباغ رديئة الصناعة غير متناسبة مع لون بشرتها السمراء، وحيدة تتلفت في قلق بحثًا عن شيء لا أعرفه.

أخرجتْ طعامًا من حقيبتها، عرضتْ علي أن أشاركها إياه، شكرتها وعدت إلى سماع موسيقاي، حاولت أن تسحبني إلى حديث معها، هربت، حاوطتني بسؤالها المستمر عن اسمي وعملي وكيف أتيت.

أنصتُ إليها بجسدي بينما عقلي يعبث في إتجاه آخر فلم أعي شيئًا. كل ما عرفته أن اسمها " سوسن" مثلي، وأنها تعمل صباحًا في شركة القطاع العام التي يعمل بها أبي ومساءًا في محل لتصفيف الشعر.

عدت من غفلتي على صوت مسئول الرحلة يهنئنا بسلامة الوصول. وعدتني سوسن باللقاء قريبًا فقلت لها" إن شاء الله".

شاهدتُها مرارًا بعد ذلك، تلتصق بي كلما تحركت، تأتي للجلوس إلى جواري على الشاطيء، تجلس على الرمال إن لم تجد كرسيًا. تشاركني طاولة الطعام، ترغب في الخروج معي والتمشي في جنبات المدينة ليلاً.

زهدتُ تمامًا في الحديث، في حين كانت ترغب هي في أن تحكي ولا تكف عن الكلام، استسلمتُ في النهاية لحكاياها ورغبتها في أن تحصل على رفيقة.

أبدى أبي امتعاضه لالتصاقها بي فهي مطلقة.

– سمعتك وكلام الناس.

مطلقة، اللفظ غريب بالنسبة لي، ألهذا هي وحيدة؟ سألتُ أبي عن طبيعة عملها فقال شئون إدارية.

من المفروض أن يحفزني حديث أبي على الابتعاد عنها ولكني أشفقت عليها وحسدتُها وحمّلتُها مسئولية إساءة الاختيار، أصبح بداخلي مجموعة من المشاعر المتضاربة جعلتها بالنسبة لي بمثابة العينة التي أرغب في تفحصها.

صرت أنصت إليها وأتحرك معها متجاهلةً حنق والدي تارةً وهاربةً من أمام وجهه تارةً أخرى، أكثر ما سائني تعامل الجمع معها، بحذر كأنّها برصاء قد يلحقهم برصها، يُسقطون عليها كل سوءاتهم، تتحدث النساء عن ملابسها غير المحتشمة الجاذبة للرجال، يتندرن على كلماتها، يعتبرنها أقل قيمةً منهن،

يسحبن أزواجهن بعيدًا عنها فهي "خطافة رجالة" دون دليل أو جريرة فعلتها.

ذات مساء، وددنا التمشي على الشاطيء ساعة الغروب، إرتدت ملابسًا مكشوفة الصدر، صبغت وجهها بالمساحيق، تضاحكتْ النساء عليها وتضاحكْتُ معهن،ثم سحبت ابتسامتي سريعًا خجلاً، ورافقتها.

أحسّت سوسن بنظرات المحيطين وهمساتهم على ملابسها، طلبت مني شالا وضعته على كتفيها، نظرتْ بحزن للمرافقين، فوجئتُ بها تقول :

– الهوانم الشرفا بالقوي اللي بيتريقوا عليا، عارفاهم كويس، وعارفة هما بيعملوا إيه وبيقولوا إيه على إجوازهم.

– شكلهم بيحسدوكي على عيشة الحرية.

– لا أنت ولا هما تعرفوا حاجة.

الشمس مالت، جلسنا على الصخر كظلين سرقا من حوريتين عندما خرجتا تمشطان شعريهما بعيدًا عن عبث الأمواج، وفي لحظة حكت لي.

يعمل بائعًا في محل لأدوات التجميل، تذهب إليه بحكم عملها عند مصفف الشعر، رجل ثلاثيني أعزب، شاغلها لما عرف أنها وحيدة حتى أحبته، صار يتحين الفرص للخروج معها، سحب منها مالاً قال أنه محتاجه، طلبتْ منه الزواج، تهرب منها ألحت عليه، أجابها أنّه مرتبط بأخرى، ويتردد عليها.

– بس ده شكله راجل لعبي ومش بتاع جواز.

– طب والسن، الستات بيعجزوا بسرعة ونفسي أشوفلي يومين.

كان جسدها ينتفض أثناء الحكاية. أحسَستُ بالحزن، هل يكون استعجالها هو ما أفشل تجربتها الأولى، بدا جليًا أنها عادةً ما تسيء الاختيار.

سألتني أن ألتقط لها صورًا تريها لحبيبها، وهي على هذا الحال، علّه يراها جميلةً فتعجبه ويتزوجها، لم أشأ أن أخبرها أن سمرة بشرتها أظهرت رداءة الالوان.

جبنا شوارع المدينة بحثًا عن استوديو لطباعة الصور، تناولنا المثلجات وجلسنا على الرصيف، سهرنا حتى الفجر ودخلنا

مقهى دون علم أبي، كانت تتعجب من انبهاري بها وقدرتي على الاستماع لمجونها وحكاياتها عن رائدات المحل الذي تعمل به.

صارت سوسن في الأيام التالية شغلي الشاغل، فهي نموذج أحبه، تمنيت أن أمتلك استقلالها وشجاعتها، معها كنت في أعلى درجات حماقتي وسعيي نحو اللهو واللعب، أحسست أنني سوسن الأخرى التي تبحث عنها، آمنة في حضن والدي، بعيدةً عن "قرف الشارع" على حد تعبيرها.

كنا ثنائيًا ملفتًا طوال الرحلة، تقديرهم لي مبعثه تقديرهم لأبي، أما هي لعبتهم وأحجيتهم، يتبادلون النظرات والهمسات حال وجودها.

في لحظة لمعت في ذهنها فكرة، عرفت من ابتسامة عينيها المسحوبتين أنها فكرة غريبة، سألتني ما رأيك أن ندخل ديسكو.

– ديسكو.. بتقولي ايه؟

– يا بت تعالي نعمل حاجة تبسطنا، أنا نفسي أرقص.

قلت في داخلي "وأنا أيضًا أحلم بأن أرقص"

إتفقنا على التلاقي بعد ساعة، الحلم لايزال يسيطر عليّ، الرقص بتنورة واسعة، كنت أحمل تنورة حلمي معي أينما حللتُ وأتحين الفرص للبسها، إرتديتها مع بلوزة قصيرة، أدخلتُها داخل إطار التنورة، رفعتُ ذراعي إلى أعلى كي تخرج قليلاً إلى الخارج، إرتديتُ حذاءًا خفيفًا يتيح حرية الحركة، أطلقت شعري، واخترت مساحيقًا بألوان ذهبية تتناسب مع برونزية بشرتي.

حال رأتني سوسن ببنطالها الجينز الذي يحوي بعض البقع اللامعة وبلوزتها التي تغطي كمر البنطال صاحت "شكلك حلو قوي، البسي كدة على طول"

ابتسمتُ خجلةً، تحركنا حتى وصلنا إلى مكان شبيه بالكهف، يحوي كمًا من الأنوار يكفي لإضاءة نفق يصل القاهرة بالاسكندرية.

– ايه ده ؟

– ديسكو، مش عاوزة ترقصي؟

– أنا خايفة، مش هادخل.

– ماتكونيش جبانة.

– لا، مش هاقدر.

كانت كل الأمور تتخبط في ذهني، هل أفعل أم لا؟، ماذا يمكن أن يحدث لو قال أحد لأبي؟، ماذا يحدث لو ثرثرت هي بالأمر، جبانة، أنا جبانة.

عدّت مسرعةً إلى المنزل، دخلت الغرفة، فتحت الموسيقى بصوت منخفض وأخذت أرقص بتنورتي الواسعة، أتركها ترتفع فأصير كالوردة وأتخيل وردات أخر تحيط بي، وتارةً أشغّل موسيقى هادئة تصلح للرقص الكلاسيكي – التانجو – وأتخيل نفسي أراقص شخصًا ما، طرق أحدهم باب الغرفة، فأغلقت الموسيقى.

في اليوم التالي، تلاقت عينانا، أدرتُ وجهي وجلستُ مع النسوة أستمع لتندرهم عن سوسن.

حِـمْـل

دولاب ملابسي يئن تحت وطأة ثياب لا تجد من يرتديها، أتفحصها جيدًا، كثير منها صار لا يناسبني، أجمعها وأرصها في أكياس، حتى تقوم زوجة حارس العقار بمهمتها التقليدية في توزيع مازاد من الملابس.

بس يا ست دول لسة جداد.

معلش، ماهم ماعادوش ينفعوا يا أم أحمد.

بالطبع لم يعودوا ينفعوا، فقد زاد وزني كثيرًا الفترة الماضية، ورغم أني قد أعطيتُها الكثير إلا أني أبقيت جزءًا اشتريته بكثير من النقود واستخسرتُ إبعاده.

أما أخس أبقى ألبسهم.

جملتي المعتادة التي لا أفعلها أبدًا، فما أن أفقد بعضًا من وزني حتى يعاودني الاحساس بالملل، فأعود إلى عاداتي الغذائية السابقة، وإلى سابق أرقامي على الميزان.

فراغ جزء من دولابي يوحي لي بمهمتي الثقيلة، الملابس الجديدة.

توصيني أمي ألف وصية قبل النزول، ألا أشتري ملابس تظهر عيوب قوامي.

لو كنت أعرف اخبيها كنت خبيتها، إنما فيه حاجات كدة ما تستخباش.

أقولها لنفسي وأخرج.

أمشي مسرعةً قدر الأمكان، ناظرةً إلى الأرض، أكره رؤية نظرات الاستغراب والاستهزاء في العيون

– ما بالكم، امرأةً عاديةً تسير بسرعة في الشارع، هل لم تروا مثلها ؟ يبدو أنه لم تعبر مثلي من هنا.

أحاول جاهدةً ألا أسمع أيّ كلمات من الصبية أو الباعة الذين يفترشون الطرقات.

يا سمين.

شجرة الياسمين بالفعل بجواري.

ترى هل كان يقصدني أم يقصد الشجرة ؟ كل اثنين ينظران لبعض هما يشيران لي، وكل كلمة أو مزحة تتردد على مسمع مني هي سخرية مني.

أسرع المشي وأحاول أن أبدو ثابتةً، لا ألهث أثناء هرولتي فألفت لي النظر أكثر.

طفلة أنا تجلس في ركن غرفة موصدة يحيط بها كائنات لديها فقط عيون متبجحة وشفاه ساخرة دون يد تربت على كتفها.

أصرخ في خيالاتي، لابد أن لهم ما يهتمون به أكثر مني، تركض الخيالات وأعود أتلفت حولي.

أتجنب المحال التي يعمل بها رجال، آخر مرة دخلتُ للقياس بمحل يعمل به رجل لم أعرف أين أهرب من نظراته، كان يتفحصني من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى حتى كدت...

لم تكن لي أبدًا الشجاعة لأفعل شيئًا حيال نظراته.

تأملت فاترينة المحل مليًا، أظن أن هناك ما يناسبني بالداخل، ما أن تنظر إلى البائعة – المرشحة بجدارة للعب دور في رواية البؤساء – بوجهها المطبق وعينيها البارزتين حتى ينتقل حملي إلى كتفيها النحيلين، يلمّح لها صاحب المحل بنظرة نارية أن تتابعني خوفًا من إفساد شيء، تعودتُ على المشهد حتى صرتُ لا أكترث، أعبث بالملابس، وهي واقفة خلفي في قلق، أُخرج قطعةً لأتأملها، تقول لي:

مافيش منها مقاسك يا مدام.

أدخلها دون أن أتكلم أو أنظر إليها، أعرف مقاسي وما يمكن أن يناسبني جيدًا، أُخرج قطعةً أخرى

ثواني أجيبلك المقاس

أعيدها إلى مكانها قائلةً:

ما بحبش الاستايل ده.

تنظر إليّ في غيظ ولسان حالها يقول "هو أنت لاقية؟"

أتجاهل نظراتها وأستمر في البحث، أخرج قطعةً ثالثةً أظنها تعجبني، تقول لي : "وريني كدة" تستعجب إخراجي للمقاس المضبوط دون جهد منها، جسدي وأنا أدرى بأحواله.

أرتديه، أتأمل نفسي في المرآة، شرط أساسي أن تداري القطعة شيئًا من العيوب، أظنها مناسبةً، أقول لها "هاخده".

تتنفس الصعداء ويهبط الحمل من كتفيها، أعطيها عدة جنيهات لقاء تعبها، تبتسم لأول مرة منذ دخولي إلى المحّل، أظن أنها لن تقابلني بنفس هذا التجهم حين تراني ثانيةً، أخرج حاملةً كنزي الثمين، الشمس مالت أنظر في الساعة لأكتشف أنه قد مضى أكثر من ساعتين في نفس المحل، لازلت أحتاج بعض الأشياء، أمشي نحو المحل المجاور، ألتقط نفسًا طويلاً ثم أدخل

المحل بنفس النظرة المتجنبة لأعين المحيطين وأشهد نفس الحمل ينتقل إلى الكتفين النحيلتين.

أقنـــعة

انـزوت بعـد يـوم طويـل فـي حجرتهـا، تحصـي أقنعتهـا، وتحضـر قنـاع اليـوم التـالي، قنـاع تحبـه، اعتنَـتْ بـه عنايـةً فـوق المعتادة، لمعته ولونته بألوان الصباح، غارت الأقنعة في منتصف الليل، لماذا تهتم به أكثر من أي قناع آخر، فارقوها جميعًا ما عدا القناع المختار، ظلّت ترتديه أيامًا حتى سئمته.

في الشارع، أسقطته من على وجهها، دهسته السيارات، ظهر وجهها، شعرت أنها عارية ولم تدر ماذا تفعل، طأطأت رأسها ومضت متجنبةً النظر إلى عيون أي شخص أخر.

عند المساء تطلعت إلى مرآتها فلم تجد وجهها وإنما شيء شديد البياض به عينان ومجموعة ثقوب، حاولت أن تصرخ، ظهر صوتها كصوت ميكانيكي، يبدو أن الأقنعة كانت تحمل أصواتها، وجدت قناعًا قبيحًا منزويًا في ركن الغرفة، يحمل صوت عجوز عصبية، ارتدته.

لكنه لم يلائم وجهها، فألقته.

في المرآة، وجهها عاد للتشكل ثانيةً كوجه طفلة، فرحت، نظفت حجرتها، نزعت آثار كل الأقنعة القديمة.

فـي الصـباح، تحسسـت وجههـا خوفًـا مـن أن يكـون قـد إختفـى، وجدتـه تشكّلّ وجهًا لصـبية جميلـة تريـد أن تلـون حجرتهـا بألوان الحياة.

حيه قالت لي

قالت لي صديقتي: "تعالي نتنزه"، قلتُ لها : "أرغب في أن أظهر بصورة مختلفة". ارتديْتُ تنورةً واسعةً، وبلوزةً منزوعة الأكمام، ربطتُ شعري بمنديل وارتديتُ حلقًا وقلادةً ضخمين وأساورعديدة. تندرت صديقتي على تنورتي الواسعة، سائلةً إياي: "كيف ستتحركين بها؟" لم أهتم.

دخلنا إلى منطقة قديمة هي في الأصل وكالة حيث مهبط التجار قديمًا للبيع والشراء.

المنطقة الأثرية تشي بأن أشياء كثيرة لم تتغير منذ سنين، حتى الباعة في الوكالة هم أنفسهم من يعملون بها منذ سنين، فقط غيروا ثيابهم كي لا يظهر نشوزهم عن الزمن الحاضر، ربما مرّ بها ساحر من الزمن القديم ألقى عليها تعويذةً تحميها من التغيير. سرت في المكان كأنني هبطت هناك عبر آلة زمن.

رأيتها، كانت متناغمةً تماما مع المكان.

سألتني: "أشوفلك الودع." هي في حوالي الأربعين، وجهها كالأرض أسمر، لا يعرف المساحيق. ظهرت فجأةً بجلبابها الواسع من بين الطرقات كأنها لم تكن هناك أو خرجت من بين الحوائط أو اخترقت حجاب الزمن كما اخترقته، لا أدري.

تقدمت نحوها قليلاً نهرتني صديقتي قائلةً: "هن دجالات" لم ألتفت لكلمات صديقتي.

سألتُ المرأة: "بتعرفي".

أجابت: "طبعًا ".

فردت قطعةً من القماش بها قليل من الرمل وبضع صدفات، أعطتني أحدها كي أحكي معها، أخذَتْها مني وألقتها بين الأصداف الأخرى، قالت لي أني سأتزوج من أشبه معه من أقاموني في الحياة امرأةً، سألتها عن معنى الكلمات فلم ترد، سألتها متى فلم ترد، ذهبَت فجأةً كما ظهرَت فجأةً.

قالت لي صديقتي: " قلت لك دجالة "

فكرتُ كثيرًا في كلمات العرافة، وقفت كثيرا أمام مرآتي أبحث عن شبهي بمن أقاموني امرأةً. أخذت من أمي استدارة وجه وشعر مجعد وبشرة خمرية مع كثير من الصمت والجنوح إلى التكرار وأخذت من أبي عينين عسليتين وأصابع طويلة وقدرة على التذكر.

أجهدت نفسي كثيرًا في البحث عن وجوه الشبه بيننا، وراقبتهم، يكاد يومهم لا يتغير، مقيدون بسلسلة إلى سارية يظنون

أنهم يتحركون في خط مستقيم وفي الحقيقة هم يدورون حول السارية، كدت أحفظ العادات اليومية عن ظهر قلب، حتى أنك أن لم تجد حولك ساعة بأمكانك معرفة الوقت من العادة المصاحبة، موعد الاستيقاظ والخروج إلى العمل، موعد رنين الهاتف ومن المتحدث ومدة المكالمة، مواعيد الجلوس على القهوة والطبخ والتلفزيون. أكاد أجن، هل هذا ما يسمى بالحياة، لا يفرق الأيام سوى اسمها، عبث تسمية الأيام والشهور والسنين.

كرهت العبث وحاولت الخروج منه بفعل أشياء مختلفة، قابلني الجميع بكثير من الاستهجان، مجنون هو من يحاول قطع السلسلة.

نظرت إلى المرآة، لمحت المباني الأثرية، المرأة خلفي قالت لا مفر، يمشي الأحفاد في ظلال الأجداد، صرخت وليس من يسمع ولا من يجيب.

ضغط الجميع لأجل أن أكون كالجميع وأكوّن أسرةً، إلتفّت حولي قريباتي في الأفراح سائلات : "ألن تتزوجين؟ " أعرف مشاكلهن مع أزواجهن تمام المعرفة ولا أريد جرح أي منهن.

مازحتهن :" أتشعرن بالغيرة؟ "

أخافنني : ستعيشين وحيدة ! رأسك الصلب يحتاج كسره.

هل حقا أمتلك رأسًا صلبًا ؟

أعدت تذكر من طلبوني للزواج.

قال لي : أريدك ربة منزل كأمي وأختي.

قلت له : أريد أن أعمل.

قال لي : أريد راحتك.

قلت لـه : سل أي فتاة متى شعرت بالأمان، حين كانت أمها تعمل أم حين أكرهت على الجلوس بالمنزل ؟ حين خرجت بمفردها أم حين عجزت عن فتح الباب.

قال لي: تخربين البيت.

قلت له: لا أريدك بيتًا، وتركته.

سألني آخر: ماقيمة ما تعملين؟

قلت له: أحبّه.

قال لي: لا ضرورة له.

قلت له: وأنت أيضًا لا ضرورة لك. وتركته.

ثم سأل ثالث: كنت أبحث عن أمرأة جميلة ثم كففت.

قلت له: أبحث عنها بعيدًا. وتركته.

فيما توصل مساقط النور الهواء، النور، رائحة الطبخ وأسرار البيوت، جارتي وزوجها سبا بعضهما وتشاجرا. عدّت إلى غرفتي وشبح العرافة الذي يجوس خلالها، قالت: "لا مفر من القدر، هكذا أنت وهكذا يجب أن تكوني". أغلقت الأنوار وخرجت، إنه موعد التلفزيون.

أخبرتني صديقتي أنها ستتزوج، إنسانة عملية لم ترغب في كسر السلسلة قالت أنها ستوسعها قليلاً، فتتسع الدائرة وترى أشياء أكثر. لم أشعر مطلقًا بالارتياح نحو خطيبها زوج المستقبل، لا علاقة لي بالأمر، ستظن أنّي أغار، فليهنأ كل سعيد بسعيده، تخرج صديقتي من دائرة أهلها إلى دائرة زوجها حيث تترك من يعترضون على ملابس خروجها إلى زوج تتخير أمه لها ألوان ملابسها الداخلية قائلةً: "هكذا كنا نرتديها. "

استعجلت صديقتي، فتركتها.

غلفت نفسي بأغلفة من العمل والتجهم واهمال المظهر وترهل الجسد، ونسيت كل شيء عن الأسرة، كان مواء القطط

تحت نافذتي في إبريل يرهقني ويمنع عني النوم ليلاً، اكتشفت مرور الزمن من سن ابناء صديقاتي ومن علامات الزمن على وجوههن.

ارتديتُ ثياب الغجر وذهبت إلى الوكالة الأثرية ربما وجدت العرافة وسألتها عن معنى كلماتها.

تجولت في المنطقة علني ألمحها هنا أوهناك، نفس المنطقة بنفس الوجوه ينقصهم وجه العرافة. سألت الموجودين عنها

– جلست هنا عرافة من زمن بعيد حكت لي أشياء تهمني

– قد ماتت

– ماتت قبل أن تدلني؟

– قبرها في الجهة الشرقية.

تحركت في وجل نحو القبر، ماتت ونبتت فوق قبرها شجرة آوت الطير والحيوان والزاحف.

عدت إلى المرآة مرةً أخرى، رأيتها هذه المرة تبتسم، أمسكت حجرًا وكسرت المرآة فلم تظهر ثانيةً أبدًا.

عالم أليس

تمنتها أمها من بلاد العجائب فأسمتها أليس كبطلة فيلم الأطفال، قالت جدتها أنها تشبه أمها فهي بيضاء بعينين عسليتين وشعر ناعم، حلمت أمها أن تكون عروسًا في ثوب أبيض، أن تكون آية في الأدب والأخلاق.

لم تنشغل أليس على عكس الفتيات بشكل شعرها وأنواع الملابس بل بألوان الفراشات، تناسق الزهر والدرجات المختلفة لألوان السماء عند الشروق، تتسلل لمكتبة أبيها لتسرق كتبه، دائمًا منفردة، تخلق عالمًا خاصًا بها تحيا فيه، تتكلم مع أشخاص هي وحدها من تراهم وتسمعهم. سببتْ كثير من الحيرة لأمها، أبوها دائمًا ما يقول أنت من أردتها من بلاد العجائب.

في الرابعة عشرة أصبحت تسمع من صاحباتها أن لكل منهن سر تخفيه عن أهلها، وأن أسرارهن عادةً قصص حب لشباب يكبروهن بسنين عدة، وأنهن يخفين هدايا وتذكارات الأحباب بعيدًا عن الأهل. حكت لها الصديقات عن خفقان القلب عند رؤية الحبيب، الفرحة التي ترقص في العينين، المقابلات المسروقة، اللمسات الخاطفة، أحاديث الفجر، الأسماء المستعارة على الهواتف، الزهور المجففة وسط أكوام الكتب القديمة، مغامرات الخروج من المنزل، وكيف تحب كل منهن أن تبدو أمام

الحبيب، كيف يرتدين أفضل ما لديهن، كيف حشت أحداهن صدرها لتظهر كأنثى مكتملة أمام فتى في العشرين، كيف تبوء محاولات تزجيج الحواجب ووضع المساحيق بالفشل بسبب رقابة أمهاتهن وإخوتهم الأكبر.

وقفت أليس أمام المرآة ونظرت إلى نفسها، لم لا يكون لديها سر هي الأخرى ؟ أمسكت ورقة وقلمًا، كتبت اسماء من تعرفهم من الشباب من جيرانها وابناء عمومتها، فكرت، أحمد طويل ووسيم لكنه أكبر منها بعشر سنوات، كمال تافه يضيع وقته أمام ألعاب الكمبيوتر ولا يعرف شيئًا سواها، محمود أقصرمنها وهي لا تحب قصار القامة.

صارت أليس تحذف كل من لا تحب من القائمة حتى أنهت القائمة كلها، ألا يوجد أحد في هذه الحياة يمكنها أن تحبه، وأن تقوم بالمغامرات لأجله، أن يمس يدها عفوًا فيعتذر، تبتسم في حياء، وتقبل اعتذاره، تسرق أدوات التجميل من أمها لتبدو جميلة في عينيه،ألن يكون لديها سر كباقي الفتيات؟

و أخيرًا قررت، أحبته، فتى غير كل الفتيان، أطول منها بقليل، أسمر دقيق القسمات، عريض الصدر والأكتاف، يقدر أن يحتويها بين ذراعيه ويكفكف دموعها إذا ما بكت، يعي رغباتها،

يفهمها دونما كلمة. يراها من الشرفة المقابلة لشرفتها، وكثيرًا ما إلتقت عيناهما دون أن يتكلم، لكنها كانت تلمح ابتسامة خفيفة في عينيه، ومحاولات للحديث معها كثيرًا ما صدتها.

في الفترة الأخيرة صارت تختلق الأعذار لتخرج من المنزل، فهذه المرة ذاهبة إلى البقال، وتلك إلى المكتبة، وثالثة لتقابل صديقتها لكنها في حقيقة الأمر ترغب في لقاءه.

استقبلته خيالاً في حجرتها وقضتْ معه جل وقتها، سجلتْ رقمه على هاتفها المحمول باسم " فارس"

في الأيام التالية صارحت الصديقات أنه صار لديها سر، فسألنها عنه، وصَفَتْه، صارت الفتيات ينتظرن حكاياتها عن الحبيب – هذا الفتى المثالي– وطلبن منها أن تريهن صورته.

لم تحمل معها صورة له، فرسمته، دُهشت الفتيات من أن عينيه هما عيني مدرس الرياضيات، وشفتيه تشبها شفتي مدرس العلوم أما كتفيه شبيهان بكتفي ممثل مصري، خصره، ساقيه، قدميه.

خفة دمه وقفشاته قريبة من قفشات مدرس اللغة العربية، شاعريته هي نفس شاعرية بطل مسرحية شهيرة، حتى غضبه

وغيرته عليها، غريب أمر هذا الشاب، كيف تأتى لها أن تجد هذا الشاب التفصيل كما لو أنه نسج من الخيال.

لم يكن ممكنًا أن يعرف أحد بالمنزل أن لديها سر، إلا فأنه لا يصير سرًا. لكن صاحباتها بالمدرسة لديهن أسرار مثلها لذا فلن يفشين سرها الذي صارت تضع صوره المرسومة وكتاباتها عنه في صندوق قديم تخفيه أسفل فراشها، تخرجه كل حين لتضيف إليه صورة جديدة أو حكاية أخرى.

يومًا بعد يوم صار سر أليس الشغل الشاغل لمجموعة صديقاتها، حتى أن الفتيات صار يخيل لهن أن شكله في رسوماتها يتغير أحيانًا بتغير أبطال المسلسلات التلفزيونية.

حتى جاء يوم، حكت فيه والدة إحدى زميلاتها إلى أمها، أن أليس تفسد أخلاق ابنتها بما ترويه عن ذلك الشاب، وأن تأخر ابنتها الدراسي راجع لكثرة تفكيرها في حبيب المستقبل الذي تخيلته شبيهًا بفتى صديقتها.

أُسقط في يد الأم ولم تدرماذا تفعل؟ ابنتها هي- ذات الاربعة عشر عاما- تصادق شابًا ؟ كيف ومتى ومن يكون؟ إلى أي حد وصلت العلاقة بينهما ؟ هل هما...؟ لا لا ليس إلى هذه

الدرجة فهي لم تصل إلى البلوغ بعد، مازال ثدياها أخضران لم ينضجا بعد.

سألت نفسها، لماذا؟ هل أهملت في تربية ابنتها ؟ نعم، بالتأكيد قصرت في تربيتها، لم تعطها الوقت الكافي، أعطتها مساحةً من الحرية ليس من المفروض أن توهب لطفلة في سنها، تركتها تتصفح الإنترنت، وتتصل بمن شائت على هاتفها المحمول، تقرأ ما تريد، وتقضي وقتًا طويلاً باب حجرتها مغلق. أعطتاها الثقة في أن تخرج من المنزل وحدها. هي المسئولة طبعًا ولكن ليس وحدها، أبوها أيضًا يتحمل معها المسئولية، لماذا لا يعنفها أبدًا حين تختلس كتبه من المكتبة ؟ لماذا لا يمنعها من الخروج ؟ لماذا يدللها دومًا؟ حتى صارت مقتنعةً أن أمها تكرهها، وأن أباها فقط هو من يحبها، يقول دائمًا لها أنها هي من أرادتها من بلاد العجائب. ملأ عقلها بذلك الكلام حتى صدقت أنّها فعلاً من بلاد العجائب، هل تخبر أباها؟ لا لن تخبره وإلا اتهمها بإهمال الطفلة، والقسوة عليها حتى نفرت منها، لم تشاركها أسرارها الخاصة، لذا فإنها ستتصرف مع ابنتها بطريقتها الخاصة.

صارت الأمّ تذرع المنزل جيئةً وذهابًا حتى وصلت الفتاة، بدأت الأم في استجوابها استجوابًا طويلاً، لم تعرف الفتاة ردًا عليه

سوى أنّه لم يحدث. صفعت الأم ابنتها صفعةً مؤلمةً، سحبت منها حقيبتها بعنف، أخذت في تفتيشها وتفتيش الأرقام والرسائل على الهاتف المحمول، لم تجد أثرًا لما تبحث عنه سوى رقم غير مكتمل تحت اسم " فارس" وصورة في طيات الكتب مرسومة باليد، صرخت أنه منذ اليوم وصاعدًا، لن يكون هناك هاتف، أو إنترنت، أو خروج في غير وقت المدرسة، مع قائمة من المحاذير. استمرت الأم في الصراخ فترة طويلة، لملمت الفتاة أشلاء كرامتها المجروحة، وسحبت حقيبتها إلى حجرتها. كان صوت أمها لا يزال يدوي بالخارج حين أغلقت الباب، في وسط بكائها أخرجت صندوقها لترى سرها الخاص، فلم يكن هذا السر سوى مجموعة من الأوراق والرسوم عن هذا الحبيب صفّت بعناية داخل الصندوق القديم.

عند السقوط

وضع عم أحمد القهوة الصباحية أمامي، أمطرني بدعواته المعتادة "ربنا يفتحها في وشك ويحبب فيكي خلقه قادر يا كريم،ربنا يرزقك من الحلال ويسترك دايما"

رددت خلفه "آمين" فعم أحمد هو بركة المكان وهو بمثابة الوالد لنا جميعًا، وجدت في عينيه دفء عيني والدي بعد أن توفي راضيًا عني دون أن يؤرقه شيء سوى أنه تركني وحيدةً بلا رجل في هذه الدنيا مع أنّه يدرك تمامًا أن له ابنةً قويةً، إتضح هذا حين أرسلني إلى الجامعة في القاهرة متجاوزًا مخاوف أمي من الإقامة منفردة في المدينة الكبيرة، مؤكدًا عليها أنه يعرف تماما كيف ربى ابنته وأنّها لن تخذله ابدًا.

شيئ ما كان يؤرقهما كلما حكيت عن نجاحاتي في العمل والحياة، مافائدة كل هذه النجاحات وأنا وحدي؟ بكت أمي في عيد ميلادي الثلاثين، وكفت تماما عن الحديث بعد الخامسة والثلاثين مكتفيةً بنظرات الحسرة التي تلاحقني بها كلما ظهرت أمامها. ما الذي ينقصني كي لا أتزوج ؟ هل لم يدق أحدهم بابي؟ هل لم ينفتح قلبي أمام أي منهم؟ كنت أتجاهل تلك الأسئلة جميعًا وأرفض من يتقدمون إليَّ، فلم أكن قد وجدت ضالتي بعد، بالطبع

مررت ببعض التجارب التي لم تصمد كثيراً، ولكن التجربة الأعظم لم تأت بعد.

كان مساعدًا لي في العمل يصغرني بعشر سنوات، رأيت فيه شخصًا نشيطًا طموحًا، طلباتي لديه أوامرًا، حتى لو أن ما أطلبه مستحيل، من طلبات "الأسياد"- كما حلا لأحد الزملاء أن يسمي طلبات الرؤساء المستحيلة – عشقت جده وتفانيه، هناك شيء تعلمته بالطريقة الصعبة في معاملة الرجال – بعد كثير من الشجارات والمشاحنات – أن الرجل، أي رجل حتى لو لم يتجاوز الخامسة عشر لابد أن يشعر أنه يقوم بشيء عظيم لا يستطيع غيره أداؤه، أجدتُ تمثيل هذا الأمر مع الجميع إلا أن "بهاء" مختلف، فهو بالفعل يجيد كثيرًا من الأمور التي لا يجيدها غيره، كنت محتاجةً إليه فعلاً، شعرت بالاطمئنان كلما صحبته في سيارتي بعد إنتهاء العمل لأوصله إلى أقرب مكان، كما أن هناك الكثير من الاهتمامات التي تجمعنا – إضافة إلى طبيعة العمل والزملاء المشتركين – فهو عاشق مثلي لأم كلثوم، يهوى الأفلام الأجنبية، وقراءة الروايات ويمقت كرة القدم. كان الحديث لا ينقطع أبدًا ما بيننا حتى إذا مادخلت منزلي وتذكرت شيئًا أمسكت هاتفي لنصل حديثًا انقطع.

أجمل لحظاتنا حين نضطر إلى انتظار أحد العملاء خارج مقر العمل سويًا، يحدثني عن آخر رواية قرأها وآخر فيلم شاهده، أو حين يتطرق الحديث عن أمّه، وأخته، وعن أشياءه الصغيرة التي يعتز بها، قلمُ حبرٍ قد أهدته إياه حبيبته الأولى في المرحلة الثانوية، وربطةُ عنقٍ إشتراها خصيصًا ليحضر بها حفل زفافها حين ضحكا سويًا من سذاجة مشاعرهما بعد أن تخرج كلاهما من الجامعة.

أمسك يدي مرةً حين أردنا قطع الطريق، تسائلت كثيرًا وقتها، هل لابد أن تفعل هذا؟ هل لابد لي أن أدرك مقدار عطشي؟ هل من المفروض أن تلقي بجرعة ماء إلى أرضي المشققة ؟

أدركت أنني قد أغلقت الدائرة على نفسي، منحته إحساسًا بالبطولة، في المقابل تركته ليحتويني، يشعرني أنه رجلي. عرفت في تلك اللحظة أن كهرباءًا قد سرت في كياني، وأنني لن أستطيع الفكاك إلا قسرًا.

هربت، لكنه لاحقني متساءلاً لم تفعلين هذا، فلم أحر جوابًا، أذهلني أنه يعرف مايضمه صدري، وأنه يبادلني ما أشعر وأكثر.

صب في أذني كلامًا لم أفهم مثله من قبل، صددته وأعلمته أن ما يفكر به مستحيل، لظروفٍ كثيرة أبسطها ألا يظن أحد أنني أستغل منصبي، أو أنه أدار عقلي ليحقق مكاسبًا.

أخبرني عم أحمد في صباح اليوم التالي – أثناء ماكان يرفع كوب القهوة من أمامي– أن شيئًا حزينًا يطفو في عيني، وأنه يخشى علي من أمر لا يدري ماهيته. طلبت إليه أن يدعو لي فدعا لي دعواته المعتادة وخرج.

اندمجت في عملي خلال الساعات التالية، طلبت من أحد الموظفات أن تنتظر معي بعد إنتهاء ساعات العمل. رفضت متعللةً بظروفها، عرض عليّ بهاء أن يكمل هو عملها، تحرجت قليلاً ثم وافقت، إنتظرنا سويًا بعد انصراف الموظفين، سألني عم أحمد أن كنت أريد شيئًا قبل أن يغادر فشكرته، ومضى.

وقفت أرتب مجموعةً من أوراقي حين إحتك بجسدي، بعد أن أعد قهوةً لي وله، وأتى ليضعهما على المكتب.

وضعت عيني في الأرض، وهممت بالانصراف، أمسك بذراعي وجذبني إليه، طبع قبلةً على جبيني.

أخذت مقاومتي في الانهيار حين انطبقت شفتانا على بعضهما البعض، وحين لف ذراعه ليضمني إليه خضعت تماما حتى أنني لم أبد مقاومةً حين بدأ في فك أزرار ملابسي وإخلاعي إياها قطعة قطعة. صرت حواءه وصار آدمي، فرد مفرشًا على الارض فجلسنا متلاصقين عليه، تمنيت في تلك اللحظة أن تضمنا الأرض لتختلط دمائنا فنصير بذرةً في جوفها، تأملت جسده الخشن، لم أصدق أن ذراعيه الفتيتين تضماني، تمنيت لو لم تنتهي تلك اللحظة، شرع يقبلني بكل ما أوتي من قوة في الجبهة والعنق وخلف الأذن وعند الأكتاف، لم يكن ليترك بقعةً من جسدي دون تقبيل.

انفصلنا تماما عن عالمنا، سبحنا سويًا في كون آخر يضمنا نحن الاثنين فقط دون أوراق وطلبات ومشاحنات وعملاء.

تقلبنا كأننا نتقلب على العشب وننظر السماء كان كل شيء شفافًا رائقًا ليس هناك مايعكر صفوه، سمعنا صوت جداول الماء تختلط ببعضها حولنا.

رقدت واضعةً رأسي على كتفه، وبكيت كطفلة صغيرة راق لها البكاء في حضن والدها، احتضنني ونمنا سويًا حتى استيقظت على صوت هاتفي، كانت أمي، أسرعت بلملمة ملابسي المبعثرة،

ورتبت المكان الذي صار في حالة من الفوضى، لممت المفرش لأغسله بعيدًا.

أشرق الصبح وأنا على حالتي من النشوة السابقة لليلة الأمس، خرجت مبكرًا تجولت في شوارع المدينة بسيارتي. كان السؤال الذي يلوح في ذهني "ماذا بعد ؟"

جبت طرقات العمل كأني أجوبها لأول مرة، أسلم على الزملاء وأتنسم ريحه في كل مكان بالعمل، دخلت إلى مكتبي وطلبته، جاء مسرعًا.

سألته صراحةً "ينفع نتجوز ؟" أجاب " طبعًا، مش هاتخافي من كلام الناس ليقولوا إتجوزت اصغر منها ؟" أومأت برأسي "لأ، اللي يقول يقول" ابتسم وخرجنا سويًا متأبطي الأذرع وسط ذهول المحيطين.

ضياع

مخرج الكهرباء قليل الارتفاع سهل للطفلة ذات الأصابع النحيلة العبث به، نظرت حولها، لا أحد بالمحيط – ضربتها أمها سابقًا لأجل سبب مشابه– تهيأت لوضع أصابعها بالفتحة.

جائت أمها من آخر المنزل صارخةً " هو الواحد ماينفعش يسيبك خمس دقايق " رفعت نعلها وانهالت به ضربًا على ساقي الطفلة التي أخذت في الصراخ حتى سمع كل من بالمحيط صوتها، أتت الجدة على صوت الصراخ، نزعتها من يدي أمها قائلةً :

– حرام عليك، عاجبك كدة ؟ جلد البنت ورم من الشبشب

– ماهي اللي عاوزة تحط صباعها في الكهربا، أسيبها أما تتكرب يعني ؟

– وهو الضرب ده هو اللي هايخليها ماتحطش صباعها في الكهربا؟

أخذت في هزهزة الطفلة قائلةً:

– معلش يا حبيبتي، ماهي أمك بقى أسهل حاجة عندها الضرب، كل ما تضايق من أبوكي تضربك.

– يوه يا ماما، يعني هو واخد باله من البنت.

سحبت الجدة كرسيًا قريبًا جلست عليه، وأطلقت الطفلة لتلعب بعيدًا.

– ويعني حد ضربك على إيدك علشان تتجوزيه، مش هو ده محمد اللي قلتي مش هاتجوز غيره، محمد محمد وما أتجوزش إلا محمد، إتقدملك كتير وانت اللي حكمت دماغك، والمرحوم ابوكي ماكانش موافق وقلتله ما تغصبهاش على حاجة، خليها تعمل اللي هي عاوزاه، وبصرناك وقتها، قلنالك مش بتاع مسئولية، وأهو اللي حصل، يرميك هنا بالأسبوع علشان يريح دماغه، يلا يكش يشوفله شوفه تانية.

أشاحت الأم بوجه ها بعيدًا

– ايه الكلام جه على الجرح ؟

– مش لازم تعيديه كل شوية.

– لأ لازم أفكرك علشان ما تطلعيهوش على البت، ولا يكونش اللي مضايقك أن البت شبه ابوها فبتفكرك بيه؟

الطفلة بالفعل نحيلةٌ سمراء، روح أبيها تلبستها، فهي تصحو مبكرًا، تجتذبها مباريات الكرة وتنزعج كثيرًا إذا ما تحول التلفاز عنها، تحب أصناف الطعام التي يحبها وتكره ما يكرهه.

كثيرًا ما رأتْ أمها تلوي شفتيها قائلةً:

– بومة، شبه أبوها.

تهرع إلى الشرفة حال سماعها صوت سيارته بالخارج، صوت خطواته هو الأكثر تميزًا بين خطوات من تعرفهم، إضافة إلى أنه يجيد مداعبة الأطفال، لكنه يفارق المنزل حال مرضها، لأنه على حدّ قوله لا يطيق رؤيتها مريضةً، يقضي الوقت خارج المنزل تاركًا مسئوليتها للأم التي تزيد دائما :

– هي كدة، القط مايحبش إلا خناقه.

قبل الزواج ظهر طيبًا حنونًا عاقلاً متحملاً المسئولية كما حمل كثيرًا من الأسى لفقدانه أمه في سن صغيرة وقسوة أبيه عليه، أحبته إشفاقًا، طلبها فوافقت، رفض الأهل فأصرت، أذعنوا فأحست بالانتصار، وهاخيبة الأمل تلاحقها، تعجلت في الأمر، تزوجت حال تخرجها، لم تعمل، فأحلامها دارت حول فتى الأحلام الذي استحال كابوسًا، أفاقت منه على صراخ رضيعة في كفها،

وزوج يهملها أيامًا طوال ناسيًا أن له زوجةً تنتظر، بلا عمل، بلا أصدقاء، تمنت الموت كثيرًا، لكن من يراعي الطفلة.

– إنزلي إشتغلي يا اختي، يعني هو يسيبك مركونة طول النهار والليل وانت تفضلي قاعدة حاطة لنا إيدك على خدك.

العمل هو الحل، أمها ترعى الطفلة وتعمل هي، تستقل بأمرها، وقد تصبح يومًا شخصية مهمة يندم على فقدها، تفتخر بها ابنتها وتتعلق بها أكثر من تعلقها بأبيها.

– لسة بدور في دايرته.

هكذا حدثت نفسها، سُمعت يوما تقول:

– عاوزة اتطلق

– نعم؟ طلاق ده ايه؟ ماعندناش بنات تطلق. وهاتفضلي قاعدة لي؟ ده أنا ماصدقت خلصت منك، وأكني ماخلصت، أمال لو اتطلقتي؟

– أنا مش عارفة أعمل ايه؟

– انت اللي اخترتي.

قلة الحيلة أسلوب حياة، سمعت صوت كسر أحدى المزهريات في الغرفة المجاورة.

– بنت الـ...

دخلت مسرعة لتجد المزهرية تحولت إلى فتات، رفعت نعلها ثانية وأنهالت على الطفلة ضربًا.

بينما سحبت الجدة نفسها ودخلت المطبخ لتكمل عملها.

رحيل

صعدت الدرج ببطء بعد أسبوع قضيته بالبيت بعيدًا عن العمل، كانت غاية أمالي أن أفكر بعقلي، وأحسب حسابات المكسب والخسارة كما اعتدت، لكن فكرةً واحدةً سيطرت عليّ، أن أرحل عن عملي، لم لا؟ من حقي الرحيل، عشر سنوات من التواجد داخل هذه الجدران التي أصبحت سجنًا، أخشى يومًا أن أجد نفسي أثرًا من آثار المكان، يتغير الجميع حولي وأنا هنا كتحفة أو مزهرية، حتى ألوان الجدران والأرضيات تتغير يأتي من يأتي، يذهب من يذهب وأنا كما أنا، فقط زادت على بعض الشعيرات البيضاء والخطوط الدقيقة أسفل العينين، شعور مسيطرعليَّ بأني مغطاة بالصدأ والتراب، عشر سنوات أهب الوقت والجهد.

يفهمك الجميع خطأً حينما تهب وقتك وجهدك لأمر تراه مهماً، تصبح بلا تقدير بينهم، مجرد أمر واقع، ولا يعرفون قيمتك إلا حينما ترحل، مصاصوا دماء ليس إلا، يقولون أنهم يقدرونك حق التقدير، لكن ما يفعلونه يعدمك القوى حتى إنك لا تعود قادرًا على العطاء فتصير معدوم القيمة أيضًا، كخرقة بالية أو أدنى، تلقيها في أقرب سلة مهملات.

عقدت العزم على مقابلة رئيسي في العمل، حددت موعدًا سابقًا – على غير عادتي معه – أخذت أصف أفكاري كحبات عقد، وأرسم المشهد كمخرج سينمائي، سأطرق الباب بطريقتي المعتادة، يقول لي أدخلي، أفتح الباب وأدخل، أجلس على الكرسيّ المجاور لمكتبه، أثناء عبثه بالأوراق على مكتبه أدير الكرسي لكي أتمكن من النظر بقوة في عينيه، يخلع نظارة القراءة التي يرتديها وينظر الي مبتسمًا نفس ابتسامته المعهودة قائلاً بصوته الرخيم :

– أؤمري

فأقول له مباشرةً أنّي لن أتمكن من إكمال العمل معهم، تختفي الابتسامة من على وجهه، يقضب ما بين حاجبيه الذين يتداخل شعرهما الكثيف الرمادي ثم يتحرك تاركًا كرسيه ليجلس في الكرسي المقابل لي ويسألني:

– هل حدث سوء، هل هناك ماضايقك ؟

فأخبره أنّي صرت مستاءةً من جو العمل، حيث كثير من عدم النظام، وحيث لا أحد جدير بالثقة ومن يكون كذلك فهو فور أن يعرف مهامه وما عليه عمله يرحل تاركًا العمل، هم لا يؤدونه كما أرغب وأطلب منه مرارًا أن يعتمدوا طريقةً معينةً في أداءه توفر الكثير ولكنهم لا يسمعون، أعود إلى نفس الدوامة أعمل

عملي وعملهم، حتى أنني صرت أشعر أنّي أمًا لهم، أطعمهم وأسقيهم من كثرة مايعتمدون علىّ في أداء الكثير والكثير، منذ الصباح وحتى الرحيل عند الغروب لا أرفع عيني عن الورق والشاشات، حتى أنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا في يومي سوى العمل، كما إني أرغب في البحث عن عمل في مكان آخر تزيد معه خبرتي ومهاراتي.

في تلك اللحظة يعرض علي مزيدًا من المال وترقية، فأرفض، يغريني بمعرفتي بنظام العمل وأنّي بإمكاني أن أفعل ما أراه نافعًا لإصلاح نظام العمل، فلا أهتم، يخبرني أنه سوف يعين ثلاثةً من الموظفين قريبًا للفريق الخاص بي، فلا أردّ، وأخيرًا أستأذنه في الانصراف خارجًا لأشيع في وسط فريقي أنّي سأرحل، فيتأذون كثيرًا للفكرة ومنهم من يلح عليَّ أن أفكر مرتين قبل أن أرحل يقولون:

– كيف ترحلين وقد أمضيت عشر سنوات هنا

فلا أهتم، وتسألني سناء زميلتي المقربة كيف لم أخبرها بهذا القرار المفاجيء وأنّه قرار خاطيء، كعادة سناء في نصحي، فأستمع مبتسمةً ولا أرد، ويوم رحيلي يقام احتفال خاص لتكريمي

ويحضرون لي هديةً بعمق حبهم لي، تظل بعدها الذكرى ماثلةً أمامي لشهور عدة بعد أن أجد عملاً آخر.

و لكن ماذا لو، ماذا لو دخلت إلى رئيسي فلم يهتم ولم يبتسم، ماذا لو ذكرني أني لم أعرف خبرةً أخرى سوى هنا، أن العمل هو الأمر الوحيد الذي أفعله في حياتي،أني فارغة، دون هوايات أو اهتمامات أخرى، أنا فارغة، ليس لدي مايشغلني سوى عملي وعليه تقوم حياتي، برواز تراكم عليه التراب أو زجاجة بلا محتوى.

ماذا لو لم أشعر أني أحد أعمدة المكان، وذراعه الأيمن، لو أبلغت زملائي فظهرت أنصاف ابتسامات على وجوههم، تتسحب سريعًا ليحل محلها علامات ضيق مصطنع، وكلمة "طيب ربنا يوفقك" لو لم يقام الاحتفال ولم يحضروا لي هديةً بعرض المكتب، لو لم أجد عملاً آخر، لو تركوني وحدي.

خفق قلبي أثناء ولوجي من باب المدخل، طردت الهاجس السخيف من رأسي، رددت تحية الساعي، درت على المكاتب ألمسها، جلس على تلك المكاتب أشخاص أخر ثم رحلوا لكن أرواحهم لا تزال موجودةً هنا، في زمن آخر جلس هنا أحمد وهناك

صفاء وعند النافذة مدام سعاد، كانت آثار أرواحهم موجودةً على الحائط والكراسي وزجاج النافذة.

عند الباب هناك آثار مزاح أحمد وصفاء حين رسمته كقرد منحن كنحافته وتقوس ظهره وخفة حركته وكتبت اسمه تحتها، لمحتهما مدام سعاد فنهرتهما، ضحكا ضحكةً مكتومةً وعاد كل منهما إلى كرسيه، أما هناك فقد حفظت دموع ابنة الثالثة والعشرين وأمال ابنة الخامسة والعشرين، ثم إحباط ووحدة ابنه الثالثة والثلاثين في جيب أسفل المكتب، حين نهرني رئيسي لأول مرة، وحين كنت أتذكر حبيب الجامعة الذي كان يطيب له أن يتحدث في كل الأمور إلا عني وعنه، وحين خطب فتاةً أخرى عرفت أنه كان يحبها منذ أمد، وحين كان يحيي مشاعري تجاهه حين يحادثني هاتفيًا كل فترة متعللاً بالسؤال علىَّ، بعدها علمت أنه سافر إلى الخليج للعمل وجمع النقود كمعظم شباب جيلي.

سيئة هذه الطريقة في صف المكاتب، يصر صاحب العمل على أن تواجه مكاتبنا بعضها البعض فنتمكن من الحديث سويًا وتبادل المعلومات، ولكنه يحرمنا شيئًا من الخصوصية، كي أمتعض أو أبتسم أو أبكي أو أفكر، لابد أن أؤجل إنفعالاتي إلى حين، وإلا وجدت الفضول يحوطني، ومئات الاسئلة.

رحل القدامى وحل محلهم الصغار، هم يملأون ما بين الضلوع ولكن ليس هؤلاء من كبرت معهم، الإحساس بالغربة وإتساع الفجوة مابيني وبينهم يسيطر على، تسيطر على أحاديثهم مواضيع لا أفهمها ولا أستسيغها، أحيانا أراهم يتهامسون سرًا، هل يتهامسون عليَّ، هل يضحكون مني، هل أثير سخريتهم، لا أدري، يتركون لي الكثير لأجهزه، أخشى أن أغضب أي منهم فأفقده، أحاول أن أحافظ على ثبات انفعلاتي معهم، ولا أصرح بما يزيد عن احتمالي.

زادت الأعذار في الفترة الفائتة، ترك العمل في موعد مبكر، جلسات ضحك ونميمة لا تليق بالعمل، بواقي أعمال لم تكتمل، وكثير من الإرهاق والضغط، حتى صرخت في اليوم الأخير قبل الأجازة :

– هل تظنون أني متفرغة لأجل رتق العيوب فقط، فليؤد كل منكم ما عليه كما يجب.

أظن هم سمعوني أصرخ قائلةً: "هل تظنون أني بحاجة إليكم، أنتم مخطئون"

– أهلا يا أسماء، إزيك يا دينا، عامل إيه يا محمد.

كانت تلك تحيتي إليهم حين دخلت، ردت أسماء وأشارت دينا بيدها، وقام محمد ليعطيني ورقةً هي طلب أجازة، فقلت له أن يعطيها لرئيسي في العمل، أجاب: "حاضر"، ولم يسأل لم لا أوافق أو أرفض كعادتي.

قلت لهم أني ذاهبة إلى رئيسي، فسألني محمد أن أخذ طلبه معي، رفضت.

وقفت أمام الباب ألتقط أنفاسي كي لا يظهر علي أي إرتباك، استجمعتُ شجاعتي وطرقت الباب، أجاب :

– أدخل

تقدمت ببطء نحو الكرسي المقابل لمكتبه، قال :

– كويس إنك جيتي، أنا عندي هنا مشكلة مع المدة اللي انت محدداها للمشروع اللي في إيدك، اللي جايلنا منه مايساويش، لازم المدة دي تنضغط شوية، وما تتحججيش بالتيم العرجان بتاعك ده، شوفيلك صرفة معاهم إن شاالله تمسيكلهم عصاية زي ناظرة المدرسة.

جلست في ارتباك، فلم أتوقع هذا اللقاء.

خلـع نظـارة القـراءة وارتـدى نظارتـه الطبيـة ونظـر إلـي مندهشًا :

– مالك.

نظرت لأسفل ولم أجروء على النظر في عينيه.

– أصل...

– أصل إيه، انت لسة جاية من أجازة، إيه محتاجة أجازة تاني ؟

لا أدري ماذا دهاني، أين كل تلك الكلمات التي صففتها، تبخرت من عقلي كالاتير ولم أعرف ماذا أقول وفاجأني لقاؤه البارد وأخيرًا نطقت

–لأ، أنا كنت عاوزة اقترح على حضرتك شوية حاجات بخصوص المشروع الجديد.

الصخرة

استيقظتْ صباحًا، نفضت النوم عن عينيها، ولجت إلى المملكة تعبث بالأواني وتطرقع بها، أعدت إفطار أطفالها وزوجها، نزلت إلى العمل، صرخت في كل من في الشارع والحياة، جلست إلى مكتبها، أخرجت زوجها وأطفالها من حقيبتها لتعبث معهم، بينما تصرخ في الجميع.

صارت تتحدث إليهم وتخبرهم عن طبيعة عملها ولا تتوانى عن شرح أي مما يطرأ، تسألهم عما يريدون لطعام الغداء، وتعرف كيف ستتشتري حاجياته.

في المساء...

غسلت الأطباق وجلست بعدها تتابع المسلسل، صرخت في أطفالها لأنّهم لم يفهموا ما علمّتهم بالنهار، غضبت من زوجها لأنه لم يرض عما اقترحت بالنهار، على الفراش جلست تفكر في صخرتها الثقيلة التي يجب أن تدفعها بالغدّ.

هـــــروب

- شيلي إيدك من هنا يا بنت
- يا ماما مكان الجرح واجعني.
- كدة غلط.
- غلط ليه ؟؟
- ربنا يزعل.
- يزعل مني علشان حطيت إيدي مكان الجرح اللي واجعني، طيب هو مش زعلان من الدكتور.
- اخرسي بقى يا بنت.
- طب هو مش هايزعل من خالي ؟
- ويزعل من خالك ليه أن شاء الله
- أصل وانت برة البيت قلعني هدومي وداس على الجرح وقاللي أنه كدة هايخف.

وجدتك كأن شيطان تلبسك حين سمعت الجملة السابقة، أمسكت نعلك ونزلت على جسدي المتوجع أصلاً ضربًا وركلاً

إخرسي خالص، ماسمعش منك الكلام ده تاني أبدًا، خالك مايعملش كدة، يعمل كدة ازاي؟ إياك أسمعك بتقولي حاجة زي كدة، قال يعمل كدة قال.

يا الله، لماذا تغضب من البعض حال قيامهم بفعل ولا تغضب من البعض الآخر، وجعي ينخر العظم، لا أعرف هل توجعتُ من نعلك يا أمي أم من جرح الطبيب أم توجعت على كرامتي المجروحة.

سمعتُكِ يومًا تحدثين الخال عن شر الحياة، عن البنات وهمهن، عن استدارة جسدي، ثديي الذي صار كانتفاخ صغير بين كتفي ألفه بذارعي أن لم أجد حقيبةً أداريه بها، نصحك يومها بإجراء طهارة لي، هل كنت دنسة كي أتطهر يا أمي ؟

سألت البنات في المدرسة عن الطهارة ولأننا كنا صغيرات جدًا، هُيأ إليهن أن الطهارة اغتسال، سخرت بعض الفتيات وسألنني إن كنت أستحم أم لا، ركضتُ خلفهن محاولةً اصطيادهن كي لا تسخر واحدة منهن مني بعد ذلك، ولكني توقفت حين تذكرت اهتزاز ثدي.

أخذتِني من يدي إلى مكان كئيب سميتِه مجازًا عيادة، ذبحني الطبيب فأحسن الذبح، وتركني تائهةً لا أدري لم، أي نوع من الشرور هذا الذي يستدعي الذبح بهذه الطريقة.

لو كان أبي موجودًا، هل كان يمكن أن يؤذني شرّ الحياة، لا أظن، أي شر أردت حمايتي منه، هل الشر أسوأ من أن يلف خالي ذراعيه حول خصري حال إنكفائي على الحوض للغسل، أو هو أسوأ من أن يفاجأني حال قيامي بتغيير ملابسي، صرخت في وجهه مرارًا ولم يسمع، وبالتأكيد لم تكوني لتسمعيني، أو كنت لتعملي شبشبك في جسدي ثانية، أو لتقولي لي الملاحظة المعتادة.

-خالك اللي بيصرف علينا لازم نسمع كلامه

هل هي دقات طبول العرس أم هي صوت إنذار قبل المعركة، يتأبط ذلك الرجل ذراعي، ترى ماهي علاقتي به؟ هل هو خطيبي المرشح لزواجي بالفعل أم هو الشاري دافع الثمن ؟ قال خالي أنه رجل مناسب يشبهه. وافقت يا أمي وتركتني أواجه مصيري، هل كان يمكن أن أعترض على مايراه صوابًا، رفض الحبيب بحجة فقره وعدم قدرته، صرختُ وضربتُ الأرض ولازمت الفراش ولم تسمعوا، قال لي إدفعي حق تعبي معك، قلت له أني

أعمل، سخر مني، قلت لك نتخلص منه وأتكفل أنا بطلبات المنزل، أجبت:

– ضل راجل ولا ضل حيطه أهو داخل خارج علينا طول النهار مش أحسن ما نبقى لقيه لكلاب السكك تنهش فينا، إحنا ولايا، مين هايقابل عريسك أما يجي؟؟ لازم راجل يقابله.

يا الله إرفع عني هذه البليه، أحيانًا كثيرةً أتسائل لم لا أذكرك إلا وقت البلايا، ولم لا يبتلى خالي، لم لا تأتي البلية إلا لي.

القاعة، ما هذا الظلام؟ وما تلك الإضاءة المسلطة على وجهي؟ أصير محط سمع وأبصار الناس، الابتسامه يجب أن ترتسم على وجهي الآن، أمي تبكي من الفرحة والفتيات يرقصن حولي، بالأمس أيضًا رقصن على جسدي المذبوح وقلبن في عظامي / ملابسي وأما العاملة في الحمام فقد تعاملت معي كما تتعامل مع فرخ مذبوح، نقعتني في ماء ساخن ثم نتفت كل الزغب الذي يغطي جسدي، خالي انتهز الفرصة، قبلني قبلةً مليئةً بالتبغ.

أمام كرسي الفرح أتسمر، الهرب الهرب، ما الذي يدعوني لإكمال حياتي مع زوج يشبه خالي؟ أجلس إلى جواره، قبيل الفرح طلب إلي ألا أعمل واشترط ألا أبارح المنزل إلا معه، يشك في

أطراف أصابعه وفي جلده، ما الذي يدعوني إلى إكمال الحياة معه؟ اختار السكن، وفرشه كما أراد، اختارت أمه ثيابي ومكان العرس.

دعانا ذلك الصوت الزاعق إلى الرقصة الأولى، لا أتصور أن يمسك ذلك الرجل يدي ويلف يده حول خصري ويضمني إلى صدره، تسيطر علي رغبة في هرس أصابعه بكعب حذائي المدبب وإغراق القميص الأبيض بالشراب الأحمر، ربما لو فعلت ذلك يتركني لحال سبيلي، ولكن هل يتركني الآخرون؟

أمسك بيدي، كم وددت لو إرتديت قفازًا شوكيًا، ضمني عنوةً أثناء الرقص.

الهرب الهرب سأشبه سندريلا حين تركتْ الأمير، أخلع حذائي العالي حتى أستطيع الركض، ألقي زهوري خلفي، أحمل ذيل فستاني وأهرب، سأصفع وجوههم جميعا، سيتفجر الدم من عيني خالي ولن تخلعي السواد يا أمي، سأعاقبكم جميعا على ما فعلتموه وتفعلونه بي، آه من إضاءة هذه القاعة الآخذة في السخونة سأتحين الفرصة، حين لا يظنون أني أركض سأركض، سألقي الزهور للعذارى وأنطلق.

الانفاس تقل.

هواء الشارع هو ما أتمنى، لم أشمه قبلاً هكذا، إلى أين سأذهب لا أدري، سيدرك المارون أني سندريلا التي تركت عريسها ليلة الزفاف.

الهرب الهرب.

ها قد حانت اللحظة، كل الأنظار مصوبة نحو باقة الزهور، ألقيها وأختفي، أترنح قليلاً، ويبدأ العد ١٠ -٩ -٨ - ٧...

العد يستمر لا ينتهي أبدًا كأنهم يعدون ألف رقم، بل مليون، العد مستمر، الفتيات يقترين ويقترين هل الباقة مهمة إلى هذا الحد؟ خذوها واتركوني بل خذوا العريس والعرس أيضًا، أريد مساحة للتنفس.

م س ا ح ة ل ل ت ن ف س

دائرة الفتيات تنفك، ربما أخذن ما يردن، أين باقة الزهر، أين الموسيقى والإضاءة، لون أبيض فقط وصوت يقول " أنهيار عصبي "

الطاووس

مرفوع الرأس كحاملة جرة خزفية تمتلئ بعطر معتق، ذيله أوراق شجرة صفصاف قد مدت على المياه ولونت بألوان الصيف والشتاء والربيع والخريف معًا، عُرْفُه قوس قزح تلمع فيه بعض حبات المطر، هو الطاووس المعلقة صورته على جدران بيت جدتي والمذيلة بتوقيعها تأخذُ العقل، سألتها عنه قالت :

تلقفته بين ذراعي ساقطًا من السماء.

و هل تسقط الطواويس من السماء.

أجل تسقط دون ألوان بعد المطر، تتلقفه عذراء بين ذراعيها وتلونه وإلا فأنه يذوب لو اشتدت حرارة الشمس عليه.

تلقفت أذن أمي الحوار فطلبَتْ من جدتي ألا تحكي قصصًا كهذه كي لا تخرب عقلي، فالطواويس ليست سوى كائنات بلهاء مغرورة.

صمتت جدتي، لكن حلمي بدأ في النمو، صرت أتحين أوقات المطر وأخرج خارج المنزل بحثًا عن طاووس ساقط، أسير في الطرقات وبين الأشجار، أقف في الخلاء وحدي بحثًا عنه حتى يأستُ تماماً واقتنعت أنه محض خيال.

حتى اليوم الذي خرجتُ فيه لمقابلة صديقاتي، اشتدت الرياح جدًا حتى كادت ترفعني، توقفتْ، أظلمتْ السماء وأمتلأت بالسحب حتى صار الجو كأسود ليل رأيته. أمطرت ثم انشق السحاب الأسود كأنه بسيف من نور يصل الأرض بالسماء، عمود ملون بألوان غرائبية لم أر مثلها من قبل انجذبت الفراشات نحوه وصارت تدور في دوائر محيطة.

سقط شيء عديم الألوان ضعيف، وقفت مشدوهةً لا أدري ماذا أفعل، خفت أن أقترب إليه أولا لكن الكائن أصدر صوتًا كمن يقول "ساعديني".

إقتربتُ من الشلال الضوئي، أشعة الشمس مزقتْ أوصال السحاب، أحطت بعديد من الشلالات، خفت أن يذوب الكائن الضئيل تحت وطأة الشمس التي لا ترحم.

استجمعتُ ما تبقى لي من شجاعة واخترقتُ حجب النور فلم أشعر بأذى، حملته وخرجتُ فسارت خلفي الفراشات.

هنأتني الأشجار والزهور بالطاووس، انشقت الطيور انشقاق البحر وعبرت وسطها، كان عليّ أن أدخل به إلى المنزل مخبأةً إياه من أمي التي تزجرني كلما فعلت مالا يروق لها، تشابكت فروع الأشجار حتى صنعت سلةً ارتمت تحت رجليّ،

أمسكتها، وضعتُ بدخلها الطاووس الوليد، وخبأته بقليل من العشب.

تسللت من الباب إلى حجرتي، وضعته في ركن خلفي أسفل طاولتي. سألني أن أبدأ بتلوينه، لم أكن أعرف من أين آتي بالألوان.

عدت إلى جدتي أسألها :

– كيف لوّنت طاووسك ؟

– من عند صخرة المحبين.

– أين هي ؟

– عند البحيرة.

تسللتُ خارجةً ولما ذهبتُ للبحر تخيلت أن كل صخرة هي صخرة المحبين، سألت الطير فأرشدني إلى سمراء تبكي، سألتها "أين تكون صخرة المحبين؟"

قالت أنها هي صخرة المحبين، لم أفهم، استطردت قائلةً أنها قديمًا كانت صخرة عانت من حرقة الشمس، برد الليل، ارتطام أمواج البحر وتلك النباتات التي تعلق بها، لكنها ظلت مظلةً للمحبين الذين استتروا خلفها وأسمعوها شكواهم، فتمنت أن

تكون أمرأةً تُحِب، سألت ساحر البحر فأجابها. لكنها حوت في داخلها شكوى المحبين وآلامهم فلم تقدر أن تحب واكتفت أن تجلس في مكانها تسمعهم.

سألتُ:

هل تملكين ألوانًا للطواويس ؟

أعطتني زجاجةً شفافةً لو خلطت بالعشب فلونها أخضر، ولو خلطت بالزهر يكون أحمر، ويزرق لو خلط بالماء، ويصفر لو وضع في الشمس، قالت لي أن أستخدم فرشاةً من شعر رأسي، حذرتني من عدم إكمال تلوينه وإلا يموت أو يحترق.

لما بدأت بتلوينه قصصت خصلات من شعر رأسي صنعتُ بها فرشاةً إلا أن الألوان قاسيةً، سريعًا ما أكلت الفرشاة فعدت إلى قص خصلات أخرى. سألتني أمي:

– لماذا قصصت خصلات شعرك ؟

– عرفت أن من تلقي بخصلات شعرها في البحر يزداد طوله.

– هراء.

إزدادت ألوان الطاووس جمالاً يومًا تلو الآخر، لونت رأسه وما علاها من تاج وجناحيه وبعض الذيل. سيرته هي ما ملأ يومي مع صديقاتي، اللاتي حكيت لهن كيف وجدته وكيف خبأته وكيف ألونه.

عشق طاووسي النظر إلى نفسه في المرآة، بعد أن إقترب تلوينه على الإنتهاء، وقف أمام المرآة وفرد ريشه، سار معجًبا بنفسه، فتحت له النافذة فرأى السماء وضربه ضوء الشمس، فوضعت له ساترًا، نظر إلى عيني فرأى إعجابي يزداد به، وازداد هو خيلاءًا وزهوًا. يومًا بعد يوم إنشغل الطاووس بألوان الطبيعة، أهمل محاولاتي لإكمال تلوينه مكتفيًا بما وصل إليه.

ذات نهار مشمس فتحت شرفتي، رأيته نظر إلى الشمس، لم تحرقه، وقف بها وتمطى، ألتفت ثانيةً فلم أجده. قد ذهب، بكيت وحضرت أمي على صوت نشيجي، سألتني عما بي، حكيت لها.

قالت لي: "قلت لك سابقًا أن الطواويس كائنات مغرورة وغبية، أتركيه سيعود، وإحذري من قبوله حينها"

انتظرتُه كلّ يوم في شرفتي ولم يجيء حتى مللت ونسيته.

ذات نهار أثناء تجوالي، رأيت شيئًا ملونًا يشبهه، كان يسير مزهوًا مع فتاة أكثر زهوًا منه تربطه بسلسلة مذهبة إلى معصمها، دققت النظر كان هو، هو نفسه طاووسي، وقفت قليلاً محدقةً فيه، تذكرت شعري الذي قصرته، رحلتي إلى صخرة المحبين، هربه مني، وضحكتُ ضحكةً عاليةً ربما أقلقت منام طاووس جدتي في لوحته.

هرعت إلى الجدة أسألها:

– هل هرب طاووسك ؟

– طبعًا هرب.

– لمَاذا لمْ تخبريني، وتركتيني أعبر بكل ذلك؟

لم ترد، أظن أني كان يجب أن أعبر ذلك ككل الفتيات، استأذنتها أن أرفق اسمي إلى الصورة فأذنت لي، وقتما دققت ثانيةً في الصورة، رأيت في الجهة المقابلة لتوقيع جدتي توقيع أمي، أمي هي الأخرى كان لديها طاووس.

ذيول

أعددت العدة للخروج، أحب السير في الطرقات وتأمل ما حولي، ارتديت بنطالاً قطنيًا خفيفًا وسترةً قطنيةً، وضعت ما أحتاج في جيوبي.

قلت لأمي:

– أنا خارجة.

نظرت إليّ أمي نظرة ضيق قائلة:

– إلبسي حاجة عدلة بدل اللي إنت لابساه ده، وحطيلك حاجة في وشك زي البنات.

مثل البنات، كان منتهى أحلامي في المراهقة أن أرتدي ثيابًا لطيفة وأحمل حقائب ملونة، بالذات حين بدأ جسدي في الاستدارة لأبدو كشابة لا طفلة، في ذلك الوقت لم تعن بداية العام الدراسي أدواتًا وملابسًا وحقيبة جديدة، حقيبتي القديمة وملابسي القديمة إن كانت بحال جيدة فهي تقضي الغرض لأنني وصلت إلى سن يسمح لي أن أعي أن أبي لا يمتلك عصاةً سحريةً تسمح له أن يأتي لي بكل ما أطلب، حقيبة العام السابق كانت لا تزال على ما يرام فاستعملتها قليلاً حتى تمزقت وأصلحتها وتمزقت حتى صارت خرقًا.

طلبت حقيبة جديدة كبديل للحقيبة الممزقة، وعدني أبواي بشراء واحدة، بعد أيام قليلة دخل أبي متهلل الوجه من الخارج حاملاً كيسًا أعطاني إياه قائلاً "الشنطة"، بانت علامات الفرح على وجهي وأخرجت الحقيبة من الكيس سريعًا، انطفأ الفرح حال رأيت الحقيبة، سألت أبي:

– بابا، هو إنت مالقتش إلا دي.

في الحقيقة كانت الحقيبة على أحدث صيحة لكن بالنسبة للصبيان، فهي مموهة كحقائب الجيش، انخفضت وجنتا أبي المرتفعتان وانكمشت شفتاه وتهدلت حواجبه.

– دي مالها، ماهي حلوة

– دي ولادي قوي، ماينفعش نغيرها.

– لأ المحل مش بيبدل.

أدركت أن الحقيبة ستطبق على نفسي حتى تتمزق، أو تأتيها بلية، فتقبلت الأمر محاولة إقناع نفسي أن الحقيبة جيدة وأن بها عدد من المميزات، كحمالاتها المبطنة التي لا توجع الأكتاف، جيوبها العديدة، صرت أبحث بين الفتيات عن واحدة تحمل حقيبة تشابه حقيبتي، لم أجد، سألتهن عن رأيهن في الحقيبة، كانت

الإجابة واحدةً "حلوة بس ولادي" كنت أحس بالخجل حال حملها، أتطلع إلى حقائبهن الملونة، وأتمنى أن تتمزق سريعًا، لكنها كالقرش الممسوح الذي لا يفارق صاحبه، للأسف جيدة الصناعة لم تتمزق بسهولة، ولم تكن لدي الشجاعة لتمزيق حقيبة لا تعجبني، وأخيرًا من علي الله بتمزقها بعد عام ونصف من الالتصاق بظهري.

بناتي، أسمعها كثيرًا حين أصبحت لا أنظر للفتيات أصلاً لأنه ليس هناك وجه للمقارنة، شعري المربوط باستمرار ووجهي الخال من المساحيق والثياب المريحة لا الجميلة التي أرتديها، أنستني ما ينبغي أن أكون عليه.

قضمت الحوار مع أمي كالعادة قائلةً :

– مش مهم يا ماما، أنا نازلة أتمشى، سلام بقى.

أغلقت الباب ومضيت.

أمنيـــات

قض مضجع الجدع أمرين الصبي حامل أمتداده، وشق الطريق الجديد إلى أرضه، تمنى صبيًا يشبهه يحمل صفاته، يصير امتداده، يرث ماله ويسنده حين يشيب.

سمع عن الطريق كثيرًا لكن "يوم الحكومة بسنة ويا مين يعيش أما الطريق يتشق"، لكنّه يتمنى أن يمتد الطريق إلى أرضه فيسهل أمر حمل احتياجاته إليها.

حملت أمرأته، فرح وتهلل، هنأها وملأ الدنيا ضجيجًا حول حمل زوجته، جائت بنتًا، لم يحزن.

"اللي تجيب البنت... تجيب الواد"

لابد أنه سمع أبله كريمة وهي تحكي عن المرأة التي تشبه الأرض المزروعة قمحًا أو فولاً وهو الفلاح ابن الفلاح، الفكرة قريبة إلى قلبه وعقله. أرضي التي أثمرت فولاً لابد أن تثمر قمحًا.

جائت البنت الثانية، حسنٌ، البنات خير وسعد، كل عيل بيجي برزقه والبنت زي الصبي، لكن ماذا عن الامتداد ماذا عن بقاء سلساله.

جائت الثالثة، حزن وتكدر، سأله شاب مسحور بالعلام عن نوع الإنجاز الذي أنجزه حتى يطلب أمتدادًا، فلم يرد. كان

يرى البنات يتشكلن كأمهن، وهي سعيدة، تبحث عن مواطن شبههن بها.

قال:

"بدل مايكون فيه فتحية واحدة في البيت بقى فيه أربعة"

جائت الرابعة، تشكك في الأمر، هل بذور القمح انتهت أم أن الأرض أنهكتْ وما عادت قادرةً على إنتاج شيء غير الفول، كان يدخل ويخرج ولا يلقي حتى السلام، الطريق المتعرج غير الممهد إلى أرضه كان يهد حيله، حتى صرخ يومًا "هالاقيها منكو ولا من الأرض"

أخذ المرأة ودار بها على الأولياء وكل من اعتقد أنه ذو قرب بالله، أعطى الصدقات وصنع النذور، أقام أيامًا صائمًا طالبًا الصبي، حبلت فتحية، وضع يده على قلبه وظلّ في خوف حتى جائت البشرى.

"جالك الواد"

في سبوع ولده أقام الأفراح، وفّى النذور، دعى القريب والبعيد ليشهد سبوع ولده.

صار رفيقًا للصبي لا يتركه إلا ليذهب للأرض، حتى كبر قليلاً فبدأ يصطحبه كي يقصر عليه الطريق غير الممهد.

كبرت البنات حتى صرن شجرات صبية أثمرتْ رمانًا، ليمونًا ووردًا، نظر الوالد إلى الثمار الخضر وفكر.

"أجوّز كل دول إزاي يا رب" كان سؤاله إلى الله، وكأن باب السماء انفتح في ذلك الوقت وقررت أن تريحه من حملهن.

خرجت الكبرى تلعب أمام المنزل، صدمتها سيارة لم تعرف إلى أين تذهب بعد أن قابلها جرار في الاتجاه المقابل، هرع الجميع إلي الفتاة، كانت لا تزال تتنفس وتنزف، حال وصولها إلى المستشفى خرج آخر نفس من صدرها ودفنها الأب.

وبينما لم يجف الدمع على الأولى مرضت الثانية ورحلت سريعًا ودفنها وتلتهما الثالثة والرابعة، كاد الأب يجن، شوهدت الأم تحادثهن وتضحك معهن وتصرخ في وجوههن كما لو كانت تراهن، كانت أمنية الأب أن يسترهن في بيوتهن لا تحت التراب.

"صدق مين قال، يا ويل اللي يدفن ضناه"

نبتت حول القبر شجرات موسمية الإزهار، كل من عاشر الفتيات يقسم أنه يشم عبقهن ينتشر كلما أزهرت الشجيرات، حمد الله أن عوّض بعبق فتياته المنتشر.

اهتم برعاية الشجيرات والمكوث حولهن حال الإزهار، وقنع من الحياة بالعبق. مضى عام وبعض عام وحان وقت الإزهار، استعدّ الأب، حمل العصا وإتكأ على كتف صبيه، ارتدت الأم السواد كعادتها، توجه الجميع إلى القبر، لم يزل الأب متذكرًا أمر الطريق الذي أخذ ابنته، كان الجمع من رجال القرية ونساءها في ذلك الوقت مثيرًا للدهشة.

قال الفتى "يمكن جنازة".

قالت الأم "البلد كلها في جنازة، وده مين ده وازاي ماعرفناش؟"

حال وصولهم، وجدوا الشجيرات وقد خلعت من جذورها والتربي يقف في وسط الجمع قائلاً "كل واحد يلم العضم اللي في مدفن عيلته، بلدوزرات الحكومة جاية بكرة هاتشيل المدافن وتمد طريق جديدة مسفلت يربط البلد بالبندر".

الفهرس

خيانات ٧
دوران ١٥
أحلام ٢٥
انفصال..... ٣٥
حِمْل..... ٤٥
أقنـعة ٥٣
حين قالت لي ٥٧
عالم أليس..... ٦٥
عند السقوط ٧٣
ضياع..... ٨١
رحيل..... ٨٩
الصخرة..... ٩٩
هـروب..... ١٠٣
الطاووس ١١١
ذبول..... ١١٩
أمنيات..... ١٢٥